من آثار التفكير العقلي في

مسائل العقيدة الإسلامية ، ونتائجه

دكتور

مروان إبراهيم القيسي

أستاذ مشارك بكلية الشريعة

جامعة اليرموك - إربد

ملخص البحث

يعرض الباحث لمجدل المستمر منذ قرون في مسائل العقيدة الإسلامية بين مدارس الفكر الإسلامي المتعددة ، وذلك من أجل الكشف عن آثار التفكير العقلي في مثل هذه المسائل ، وقد تبين من خلال البحث أن كثيراً من نتائج التفكير في مسائل العقيدة لم تكن إيجابية .

أهمية البحث

لاشيء أهم في حياة المرء من أفكاره ومعتقداته ، فهي الموجهه لسلوكه والمُسَطّرة لتاريخ حياته . ولاشيء أَضر على أمة من الأمم من اختلافها في عقيدتها. وقد اختلفت أُمتنا في عقيدتها كما اختلفت في فقهها . وقد كان للتفكير في مسائل العقيدة آثاره ونتائجه الجديرة بالبحث والدراسة ، كي نفيد منها في فهم الماضي وأخذ العبر منه ، والتخطيط للمستقبل ، والإعداد له .

مشكلة البحث ، وأسئلتها :

١- ما أسباب الاختلاف في مسائل العقيدة ؟ وكيف نشأ ؟ وما مدارسه الرئيسة ؟

٢- ما معالم المدرسة النّصية في التفكير العقلي في مسائل العقيدة ؟

٣- ما معالم المدرسة العقلية في التفكير العقلي في مسائل العقيدة ؟

٤- ما أهم نتائج التفكير العقلي في مسائل العقيدة ؟

مسلمات البحث :

انبثق البحث عن المسلمات التالية :

١- إن اختلاف الأمة الإسلامية في مسائل العقيدة قديماً وحديثا بعد عصر الصحابة أمر لابدّ من الاعتراف به ، والتسليم بحقائقه المتعددة .

٢- كان للاختلاف في مسائل العقيدة آثاره السلبية على ماضي الأمة وحاضرها.

٣- على الرغم من وجود الاختلاف بين مدارس العقيدة في تاريخ المسلمين، الا فإنه يبقى لهذه الأمة من الخصائص في الاختلاف ما يميزها عن غيرها .

نشأة الاختلاف في مسائل العقيدة ، وأسبابه :-

يمكن القول إن " الفكر الإسلامي هو المحاولات العقلية من علماء المسلمين لشرح الإسلام في مصادره الأصيلة : القرآن والسنة الصحيحة .

١- إما تفقهاً واستنباطاً لأحكام دينية في صلة الإنسان بخالقه في العبادة ، أو في صلة الإنسان بالإنسان في المعاملات ، أو لمعالجة أحداث جدت ولم تعرف بذاتها في تاريخ الجماعة الإسلامية ، على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد صاحبته ، أو تبرير لتصرفات خاصة صدرت وتمت أو تصدر تحت تأثير عوامل أخرى .

٢- وإما توفيقاً بين مبادئه وتعاليمه وبين أفكار أجنبية ، دخلت الجماعة الإسلامية من جانب آخر بعد أن قبلت هذه الأفكار مصدراً آخر للتوجيه .

٣- أو دفاعاً عن العقائد التي وردت فيه ، أو رداً لعقائد أخرى مناوئة لها حاولت أن تحتل منزلة في الحياة الإسلامية العامة لسبب أو لآخر إلى غير ذلك من الدوافع والأسباب"(١) .

لقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبته أصول الدين ، أي ما يتعلق بالعقائد أوضح بيان ، وبطريقة كفتهم مؤونة السؤال عن شيء يتعلق

---

(١) محمد البهي ، محاضرات في الفكر الإسلامي في مرحلته الثانية ، القاهرة ، دار الزيني ، ١٩٦٢ ، ص٣ .

بالعقيدة ، وإنما كانوا يسألونه عن الأحكام العملية . وبعد وفاته صلى ا لله عليه وسلم استمروا على إجماعهم على المسائل العقدية وإن اختلفوا في فروع فقهية تتصل بسمائل عملية ؛ فاجتهدوا . وقد مكّنهم إجماعهم على أمور العقيدة والبعد عن الجدل ، من الاهتمام بالعمل والدعوة والجهاد في سبيل ا لله وفتح الأرض ، وفي ذلك يقول المقريزي : " ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ، ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ، ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضى ا لله عنهم على اختلاف طبقاتهم ، وكثرة عددهم أنهم سألوا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد صلى ا لله عليه وسلم ، بل كلّهم فهموا معنى ذلك ، وسكتوا عن الكلام في الصفات. ولا فرّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل ، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعزّ والعظمة وساقوا الكلام سوقاً واحداً . وهكذا أثبتوا رضى ا لله عنهم ما أطلقه ا لله سبحانه وتعالى على نفسه الكريمة الوجه واليد ، ونحو ذلك ، مع نفي مماثلة المخلوقين فأثبتوا رضى ا لله عنهم بلا تشبيه ونزّهوا من غير تعطيل . ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا ، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية ا لله تعالى ، وعلى إثبات نبوة محمد صلى ا لله عليه وسلم سوى كتاب ا لله ، ولا عرف أحد منهم شيئاً من الطرق الكلامية ولا

مسائل الفلسفة فمضى عصر الصحابة رضي الله عنهم على هذا " [١] .

وظل الأمر على كذلك حتى أظهر الخوارج بدعة التكفير . ثم ظهر الجعد بن درهم وتلميذه جهم بن صفوان اللذان قالا بخلق القرآن ، وتعطيل الصفات والجبر . وكان ذلك توطئةً وتمهيداً لنشأة المدرسة العقلية وظهورها . وبظهورها برزت إلى الوجود مدرستان في التفكير العقدي . ومنذ ذلك الحين لاتزال هاتان المدرستان تسيطران على مسرح الحياة الفكرية الدينية للعالم الإسلامي ، وهما : المدرسة النّصية والمدرسة العقلية .

ومن المفيد أن نشير إلى أن أبرز اتجاهين في المدرسة العقلية هما اللذان يمثلهما المعتزلة والأشاعرة . وأن أبرز ممثلي المدرسة النصية هم أهل الحديث والحنابلة . وقد كان منتصف القرن الثالث الهجري زمناً نضج فيه مذهب المعتزلة. أما مذهب الاشاعرة فلم ينتشر إلا في القرن الخامس بعد انتشار كتب الباقلاني .

ولئن كانت المدرسة النصية سابقة في وجودها على المدرسة العقلية ، فإن مناخ الحرية الفكرية التام الذي وفرته السلطة السياسية قد أسهم في ظهور مدرسة فكرية جديدة هي مدرسة العقل . صحيح أن حرية انتخاب الخليفة صُودرت في وقت لاحق من تاريخ الإسلام السياسي ، إلا أن حرية الفكر والعقل ظلت مضمونة على الدوام ، وهذا بخلاف ما حدث للنصرانية التي

---

(١) المقريزي ، تقي الدين ، خطط المقريزي ، القاهرة ، دار التحرير ، ١٩٦٨، جـ٤ ، ص١٨٠ .

صُودرت من تاريخها الديني في القرون الوسطى ، ليشكل ثورة على الكنيسة وعلى مصادرتها لحق فهم النصوص المقدسة .

وحينما نشير إلى وجود مدرستين للتفكير الديني في الإسلام مدرسة نصية وأخرى عقلية ، فإن ذلك لايعني اقتصار إحداهما على النص دون العقل أو العكس . فقد كان للمدرسة النصية منهجها في التفكير العقلي ، له أبعاده ومعالمه وحدوده . وكان للمدرسة العقلية اهتمامها بنصوص الكتاب والسنة ومنهجها الخاص بالتعامل مع النصوص فالمدرستان إذن سطرتا تاريخ الفكر العقدي للاسلام. ولئن كان اتباع المدرسة النصية يصفون أتباع المدرسة العقلية بالتنكر للنصوص ، فإن الآخرين ينكرون ذلك مؤكدين حرصهم عليها . ولئن كان أتباع المدرسة العقلية يصفون أتباع المدرسة النصية بتنكرهم للعقل ، فإن الأخرين ينفون ذلك، ويؤكدون التزامهم بالأدلة العقلية ، وينكرون التعارض بين الأدلة النقلية والعقلية.

والملاحظ أن الاختلاف الفكري بين أبناء الأمة لم يكن منشؤه اختلافا دينيا بقدر ما كان سياسياً ، ابتداء من استياء نفر من أصحاب على رضي الله عنه من نتيجة التحكيم مع معاوية رضي الله عنه وخروجهم فسموا بالخوارج . فهم بداية نشأوا فرقة سياسية وأراؤهم لم تكن بداية سوى أراء سياسية بحتة . وكذلك الشيعة لم يكونوا ابتداءً سوى فرقة سياسية كان الخلاف بينها وبين أصحاب معاوية رضي الله عنه يرتكز حول الإمامة في شكلها السياسي المحض .

غير أن الاختلاف الذي وقع في الأمة لأسباب سياسية محضة لم يلبث أن تطور إلى نزاع فكري . فقد أضاف الخوارج لآرائهم السياسية أراء حول

شروط الإيمان ، معتبرين أن من ارتكب كبيرة مرتداً . وهكذا بدأ تكفير المسلمين بعضهم بعضاً يأخذ مكانه . ذلك التفكير الذي نأت عنه الأجيال الأولى من المسلمين لعلمها بخطر نتائجه . ثم كان نشوء المرجئة على الطرف الآخر ، لايكفرون أحداً بذنب . أما الشيعة فمع أن سبب نشأتهم كان سياسياً محضاً ؛ إلا أنهم طوروا بعدئذ لأنفسهم مدرسة فكرية خاصة بهم تضمنت أراءهم حول عصمة الإمام والبداء والغَيبة والرجعة والتُقية ، ثم ظهرت فرق أخرى تمثل اتجاهات عقلية متعددة في التفكير العقدي ، وانقسمت الفرق إلى فرق ، حتى كانت عشرات العشرات منها .

لقد افترقت أمتنا واختلفت في عقيدتها كما اختلفت في فقهها . والقول بأن المسلمين اختلفوا في الأحكام العملية أي الفروع دون العقيدة أي الأصول، أو القول بأن الاختلاف كان سطحياً ولم يكن جوهرياً كما ذهب إلى ذلك الشيخ محمد أبو زهرة ، فهذان القولان لا يصمدان أمام التحقيق العلمي الصحيح .

إن افتراق الأمة إلى فرق عديدة في العقيدة يؤكده التاريخ الذي لاسبيل لأحد إلى إنكاره . وإن اختلاف الأمة فيما يخص مسائل مهمة في العقيدة يؤكده تنازع المسلمين حول حقائق الإيمان والتكفير وطبيعة القرآن ومسائل الأسماء والصفات الإلهية . بل ليس هناك مسألة اختلف عليها المسلمون كاختلافهم على أسماء الله تعالى وصفاته ، أي كاختلافهم على الله . واختلافهم على طبيعة الكلام الإلهي . ففي مسألة الكلام الإلهي افترق المسلمون كما يقول صاحب شرح العقيدة الطحاوية على تسعة أقوال :

أولها : أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معانٍ ؛ إمّا من العقل الفعّال عند بعضهم ، أو غيره ، وهذا قول الصابئة والمتفلسفة .

وثانيها : أنه مخلوق خلقه الله منفصلا عنه ، وهذا قول المعتزلة .

وثالثها : أنه معنى واحد قائم بذات الله ، هو الأمر والنهي والخبر والإخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وإن عّبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه ، كالاشعري وغيره .

ورابعها : أنه حروف أصوات أزلية مجتمعة في الأزل ، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ، ومن أهل الحديث .

وخامسها : أنه حروف وأصوات لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً ، وهذا قول الكرّامية وغيرهم .

وسادسها : أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته ، وهذا يقوله صاحب المعتبر ، ويميل إليه الرازي في " المطالب العالية " .

وسابعها : أن كلامه يتضمن معنى قائما بذاته هو ما خلقه في غيره ، وهذا قول أبي منصور الماتريدي .

وثامنها : أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات ، وهذا قول أبي المعالي ومن اتبعه .

وتاسعها : أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ، ومتى شاء ، وكيف شاء ، وهو يتكلم به بصوت يسمع ، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً ، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة "(١).

وأما اختلاف الأمة في ا لله فإنه يظهر في اختلافها في أسمائه وصفاته . فمنهم من أثبت الصفات كلها ونّزه ا لله عن أن يشبهه فيها غيره . ومنهم من أثبت الأسماء ، ونفي الصفات . ومنهم من نفى بعض الصفات وأوّلها بمعان من اللغة . وقد اختلف في عددها . فأتباع المدرسة النصية ينفون عددا محدداً لها . والأشاعرة أبرز رموز المدرسة العقلية الباقين يحددونها بسبع ، كما اختلف على تقسيماتها .

كما إن الاختلاف بين الأمة كان قد تم الإخبار عنه مسبقاً قبل وقوعه من قبل المصطفى صلى ا لله عليه وسلم ممّا رواه أبو هريرة قال : (قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : (افترقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفَرقت النصارى على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)(٢) وفي رواية (اثنتان وسبعون في النار

---

(١) علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ، شرح العقيدة الطحاوية ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة التاسعة، ١٩٨٨، ص١٦٩ .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦) ، والترمذي (٢٦٤٠) ، وابن ماجه (٢٣٩١) ، وابن حبّان (١٨٣٤-موارد) ، والآجري في "الشريعة" (ص٢٥)، والحاكم (٦/١ و ١٢٨)، وابن أبي عاصم في "السنة" (١٦و٦٧) ، والبيهقي (٢٠٨/١٠) ، وأحمد (٣٣٢/٢) ، وابن الجوزي في "تلبيس إبليس" (ص١٨) ، وعبد القاهر البغدادي في "الفرق بين الفرق" (ص٤-٥) .

وواحدة في الجنة قيل يا رسول ا لله من هم ؟ قال الجماعة)[١] وفي رواية (قيل يا رسول ا لله من هذه الفرقة ؟ قال ما كان على ما أنا عليه وأصحابي)[٢] وفي رواية قال : انعتهم لنا . قال رسول ا لله : السواد الأعظم[٣] وللحديث فوائد وحكم نافعة منها :

١- ان يتنبه المسملون إلى الاختلاف وإلى الوعيد الذي يتضمنه الحديث ، فيحرص كل مسلم على أن يكون من الفرقة الناجية .

٢- أن لا تضطرب الأجيال اللاحقة في عقيدتها إذا علمت بالاختلاف والافتراق مسبقاً ؛ فتثبت على دينها .

ولا ريب أن المسلمين بشر ، وأنهم غير معصومين والاختلاف بينهم طبيعي، فلا ينبغي أن يتشاءم المسلم ، أو يضعف إيمانه بأمته . وأن بشرية الأمة وعدم عصمتها يفسران وقوع الاختلاف السياسي والديني . لكن إذا كانت هذه الأمة قد اختلفت كاختلاف اليهود والنصارى . بل أشد من اختلافهم ؛ إذ قد زيد في عدد فرق المسلمين على فرق النصارى واليهود ، إذا كان الوضع كذلك ، فأية ميزة للمسلمين على غيرهم ؟!

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٩٢) ، وابن أبي عاصم في " السنة" (٦٣) ، واللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة " (١٥٠) من طريق عمرو بن عثمان بن دينار الحمصي .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦/٥) ، والحاكم (١٢٨/١-٢٩) ، وابن وضّاح في " البدع والنهي عنها" (ص٨٥) ، والآجري في "الشريعة" (ص١٥-١٦) ، و " الأربعين " (ص٥٣-٥٤) ، وابن نصر المروزي في "السنة" (ص١٨) ، وابن الجوزي في " تلبيس إبليس " (ص١٧) ، واللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة " (١٤٧) ، وعبد القاهر البغدادي في "الفرق" (ص٥-٦) .

(٣) أخرجه اللالكائي في " شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة " (١٥١و١٥٢) والسياق له ، وابن أبي عاصم في "السنة" (٦٨)، والبيهقي (١٨٨/٨) ، والطبراني في "الكبير" (٨٠٣٥) ، وابن نصر في "السنة" (ص١٦-١٧).

من المعلوم أن الله لا يغفر أن يشرك به وأن المشركين إلى النار . فهذا فرق بين فِرَق المشركين وفرق المسلمين . صحيح أن فِرق المسلمين ليست كلها على صواب كما أشار إلى ذلك الحديث الشريف . لكن من المعلوم أن المسلم إذا مات موحداً وإن كان صاحب كبيرة فمصيره إلى الجنة ، ولا يخلد في النار .

أما الفرق الآخر وهو الأهم ، فهو أن الحق قد ضاع من اليهود والنصارى بتحريفهم للنصوص . فلوا أراد يهودي أو نصراني أن يتعرف على دين موسى وعيسى عليهما السلام ، كما أنزل لما أمكنه ذلك ؛ إذ لا يمكن بعد تحريف النص، فهم الكلام على دقة فهمه ، وصحة إدراكه . فأي فهم صحيح لنص محرف ؟! والدين إنما هو مجموع النص الصحيح والفهم الصحيح للنص الصحيح . فإذا ضاع النص فلا يبقى عندئذ مجال للكلام عن الفهم الصحيح . وما حدث في الإسلام مختلف تماماً عما حدث في النصرانية واليهودية قبلها . فالنصوص في الإسلام –بحكم كونه خاتم الأديان– تمت المحافظة عليها بمعجزة إلهية ، بما في ذلك نصوص السنة الشريفة التي قيض الله لها من حفظها ، وحافظ عليها حتى إنه ليقال : إن علماء الحديث هم أول من وضعوا للعالم منهجية البحث العلمي الصحيح .

يبقى – إذن – الكلام عن فهم النص . هل بقي فهم النص صحيحاً أو كان الأمر على خلاف ذلك ؟ إن الدارسين لتاريخ المسلمين يتضح لهم أن اختلاف المسلمين لم يكن على نصوص الكتاب العزيز ، وإنما كان على فهمها . وليست الفرق التي تحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا إفرازات

ونتائج لأساليب شتى متعددة متفاوتة في الفهم . غير أنه مع وجود هذه الأساليب الشتى التي نأت عن الحق في فهم النص بقي الفهم الصحيح للنص أمراً قائماً حياً سائراً بين المسلمين . وهكذا وجد في تاريخ اليهودية والنصرانية نص محرف وفهم منحرف . ووجد في تاريخ الإسلام الديني نص صحيح وفهم صحيح وأفهام منحرفة . فمن أراد الحق أمكنه الرجوع إليه في الإسلام . ومن أراد الحق في اليهودية أو النصرانية فإن الحق لديهم مفقود تماماً ، ولايمكن لهم معرفة الصواب في دينهم إلا بالرجوع إلى ديننا .

وقبل أن نبحث في أسباب الخلاف بين المسلمين ، نرى أن نلفت النظر إلى جملة حقائق مهمة استخلصها الباحث سليم الهلالي من حديث افتراق الأمة هي :-

١- " أن الحديث لايدل على أن الكثرة الكاثرة من الأمة المحمدية المرحومة ستدخل النار مع الداخلين ؛ لأن الفرق الهالكة بالنسبة للفرق الناجية جزء يسير . وبهذا وصفت الفرقة الناجية في بعض الروايات الصحيحة بأنها السواد الأعظم ، وبذلك يكون أكثر أهل الملة في الجنة .

٢- أن دخول النار لايقتضي الخلود فيها .

٣- أن الوعيد بالنار لا يستلزم تفكيرهم في الدنيا"[١] .

ويتابع الهلالي حديثه فيذكر أموراً منها :

١- " أن الاختلاف سنة من سنن الله في الحياة ، فالفرقة أمر قدري واقع لا محالة . و لله في ذلك حكم بالغة .

---

(١) سليم الهلالي ، نصح الأمة في فهم أحاديث افتراق هذه الأمة، دار الأضحى، عمان، ١٩٨٨، ص ص ٣٥-٤٨ .

٢- لايجوز إخفاء الخلاف أو كتمانه أو التستر عليه وتجاهله ؛ لأن الحقيقة لابد أن تظهر ، مهما عُمل على تأجيل ظهورها . وإخفاء الخلاف أمر مهلك .

٣- أن الفرقة والاختلاف وإن كانت واقعة لا مفر منها ، إلا أن المسلمين مكلفون شرعاً بالأخذ بأسباب القضاء عليها .

٤- أن النصح والنقد والتقويم لابد أن يكون مشفوعاً بالإشفاق والموعظة الحسنة "[١] .

أما عن أسباب الخلاف بين المسلمين فإن المرحوم الشيخ أبو زهرة يذكر بعضاً منها في كتابه " تاريخ المذاهب الإسلامية " : على النحو التالي :

١- العصبية العربية .

٢- التنازع على الخلافة .

٣- مجاورة المسلمين لكثيرين من أهل المعتقدات القديمة ، ودخول بعضهم في الإسلام .

٤- ترجمة الفلسفة .

٥- التعرض لبحث كثير من المسائل الغامضة .

٦- القصص .

---

(١) سليم الهلالي ، نصح الأمة في فهم أحاديث افتراق هذه الأمة، دار الأضحى، عمان، ١٩٨٨، ص ص ٣٥-٤٨ .

٧- ورود المتشابه في القرآن الكريم .

ويرى د. محمد البهي أن العوامل التي ساعدت على تكوين مذاهب التفكير العقدي هي :-

١) " تأثير الأحداث المحلية . والانقلابات الداخلية ، فقد عاون هذا العامل على تأسيس مذاهب العقيدة في "الإمامة" ، ورأينا رأياً للخوارج وللشيعة الزيدية والإمامية ، والغلاة أو الإسماعيلية وللمحايدين كعبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص وللمرجئة ، كغيلان الدمشقي . ثم رأينا المدرسة الاعتزالية والصفاتية أو الأشعرية ، كل واحد منها تدلى برأيها في الإمامة كما تدلى بالرأي في بقية المسائل الأصولية والاعتقادية.

٢) تسرب الفكر الأجنبي الوثني (الإغريقي أو المصري) ، والشرقي: البوذي ، البرهمي ، الزرادشتي ، المانوى المسيحي واليهودي والفلسفي الأغريقي ، وهذا خلق .

(أ) المذاهب الفلسفية التي منها :

١- الاتجاه الفلسفي لما بعد الطبيعة : الذي يمثله ابن سينا في المشرق، وابن رشد في المغرب .

٢- الاتجاه الفلسفي : الذي يمثله أبو بكر الرازي .

٣- الاتجاه الفلسفي الإشراقي : الذي يمثله السهروردي المقتول .

(ب) كما ساعد على نشأة :

١- التصوف الزهدي : الذي يمثله الحارث المحاسبي .

٢- التصوف الفلسفي : الذي يمثله الغزالي .

٣- التصوف الهندي المسيحي الأفلاطوني : الذي يمثله ابن عربي ، وابن سبعين ، والحلاج "[١] .

وبعد النظر في أسباب الخلاف ، كما ذكرها الشيخ أبو زهرة ، ود. محمد البهي فإن الباحث يرى أن أسباب الخلاف هي مايلي :-

١- الأسباب السياسية كالتحكيم بين علي ومعاوية ، وخروج الخوارج والنزاع على الإمامة وأحقية علي وأئمة الشيعة بها . وقد تطورت هذه الأسباب لتكون فيما بعد أسباباً لأختلافات عقدية .

٢- الجهل بلغة القرآن ، وأساليب بيانه .

٣- الإعراض عن الحديث مصدر من مصادر العقيدة .

٤- الاقتباس والتأثر بالفلسفة اليونانية ، وتطبيق أساليبها على المفاهيم الإسلامية، واستعمال مصطلحاتها في الفكر الإسلامي .

٥- البحث في قضايا عقدية نهينا عن البحث فيها كالقدر والمتشابه الذي لايعلمه إلا الله ، وفي مقدمته حقيقة الصفات الآلهية .

---

(١) محاضرات في الفكر الإسلامي في مرحلته الثانية ، ص٥ .

٦- الإعراض عن منهج الصحابة في الاكتفاء بما تعلموه من عقائد الكتاب والسنة ، وعن منهجهم في الابتعاد عن الجدل في العقائد .

٧- الإعراض عن منهج الإسلام في جدال أصحاب المعتقدات الأخرى ، وعدم الاكتفاء بذلك المنهج، واللجوء إلى أساليب أخرى لا صلة لها به.

على أن أبرز مسألة جعلت من التفكير العقلي في مسائل العقيدة تفكيراً له نزعات متعددة كانت مسألة العلاقة بين النص والعقل . ولذا فإنه مهما تعددت نزعات التفكير فإنها لاتخرج عن أحد هذين الاتجاهين : الاتجاه النصي والاتجاه العقلي .

وهذه المسألة ، أي الاختلاف على ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين النقل والعقل جرّ - ويا للأسف - إلى اختلاف الأمة على النص نفسه ، ثم الاختلاف على طبيعة العلاقة بين النصوص نفسها وطريقة التوفيق بينها . أما القرآن الكريم فليس هناك مجال للاختلاف على قطعية ثبوته . لكن الأمة اختلفت على قطعية دلالة نصوص . ولو اقتصر الاختلاف على طبيعة دلالة نصوص الأحكام العملية الفقهية لهان الأمر . لكن الخلاف كان أيضاً على طبيعة النصوص الخاصة بالعقيدة ، وصفات الله تعالى ؛ فبرزت قضايا ومسائل مثل التأويل الصحيح والتأويل الفاسد، والمجاز والحقيقة ، وظاهر النص وباطنه . وهكذا اتفق المسلمون على ثبوت قوله تعالى : ﴿ وجوهٌ يومئذ ناضِرَة * إلى ربّها نَاظِرة﴾ القيامة :٢٢-٢٣ لكنهم افترقوا، واختلفوا في رؤية الله يوم القيامة .

ويبين لنا عمر حسنة ما جره الخلاف على طبيعة العلاقة بين العقل والنقل على الأمة بقوله " ولعل من أخطر علل التدين ، التي تسربت إلى المسلمين ، ذلك الصراع المفتعل بين الوحي ، وبين العقل ، أو بين الدين ، وبين العقل ، حيث تشكلت الكهانة الدينية الكنسية التي مارست الإرهاب الديني ، واحتكرت الفهم والتفسير ، والاجتهاد ، والتعليم ، وجعلت الدين نقيض العلم، والعقل ، وجعلت من مقتضيات التدين الصحيح ، إلغاء العقل ، وتسرب هذا البلاء ، وهذه الثنائية، بين الوحي والعقل ، إلى الفكر الإسلامي ، واستنزفت منه هذه الجدليات ، البعيدة عن طبيعة الإسلام وقيمه ، ردحاً طويلاً، مزق نسيج الأمة الثقافي ، وبعثر وحدتها الفكرية ، وملأ حياتها بالفرق والاختلافات ، بعيداً عن المواقع الفكرية المجدية ؛ وبدل أن تترجم قيم ومبادئ الإسلام إلى الأمم الأخرى ، لتخليصها من شقوتها، وما يمارس عليها من الإرهاب الديني ، ومن ثم إلحاق الرحمة بها ، ترجمت تلك الجدليات إلى الإسلام، وفصّلت عليه ، فأدى ذلك إلى لون من الانشطار الثقافي الرهيب ، الذي لايزال يفعل فعله في مناهجنا التعليمية إلى اليوم "[١] .

وأما السنة النبوية فقد كان الاختلاف عليها واضحاً ، على طريق ثبوتها وعلى الاستدلال بها ، حتى ما ثبت منها بطريق القطع ، أي المتواتر قد اختلف في دلالته على مسائل العقيدة . وأما أحاديث الآحاد وهي أكثر السنة ، فقد أبى أصحاب الاتجاه العقلي الاعتماد على شيء منها في مسائل العقيدة .

---

(١) عمر عبيد حسنة ، الشاكلة الثقافية ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٣ ، ص٤٦ .

ومن هنا أمكننا القول أن الشيء الوحيد الذي لم تختلف عليه الأمة هو قطعية ثبوت النص القرآني . لكنها اختلفت على فهمه وتفسيره من خلال البحث عن الغاية منه ؛ فتعددت التفسيرات والتأويلات للنصول العقدية ، وانقسمت الأمة إلى فرق وطوائف بسبب فهمها لنصوص كتاب واحد أجمعت على قطعية ثبوته، لكنها تفرقت في تصوراتها ورؤياها وأرائها حول دلالات النصوص ، وغاياتها .

ولقد كان لاختلاف الأمة في مسائل العقيدة أبعاد بعيدة المدى ومضاعفات سلبية . وذلك أن عقيدة أية أمة تشكل نواة وحدتها ورمز قوتها . على أن هذا البحث لا يُهْدَف منه عرض أراء المدارس العقدية بتفصيل المسائل المختلف عليها ، فهذا يحتاج إلى مجلدات ومجلدات ، ولكنه يرمي إلى عرض الخطوط العامة والرئيسة للاختلاف ، وبحث نتائجه وأثاره .

معالم المدرسة النّصّية :

يعتقد أصحاب المدرسة النصية أنه ينبغي في الاستدلال على مسائل الاعتقاد الاكتفاء بنصوص الكتاب والسنة أدلة نقلية وعقلية معاً . وينسجم اعتقادهم هذا مع إيمانهم بأن العقيدة أمور غيبية ، وأن أحكامها ومسائلها كلها توقيفية . والإيمان لابد أن يقوم على التسليم التام بهذه المسلمات . وأن الاستدلال على أية عقيدة لابد أن يكون مستنداً إلى نص شرعي ، بقطع النظر عن كونه قطعياً أو ظنياً ، وأن البحث إنما يكون فيما حواه النص الشرعي .

إن القرآن الكريم في نظر أتباع المدرسة النصية مستقل بنفسه غير محتاج إلى غيره إلا للسنة النبوية . ذلك أن الكلام الإلهي صفة لله ، وصفات

ا لله كلها كمال بحد ذاتها ، وا لله سبحانه غير محتاج لغيره . وقد تضمنت نصوص الكتاب العزيز من الأدلة العقلية ما يجعله غير محتاج إلى أدلة عقلية من خارج نصوصه . والدين كله مبني على التسليم والإتباع . أما العقول فإنها تابعة لا متبوعة . ولايمكن أن يتوقف فهم النص الإلهي على أدلة خارجة عن ذلك النص ، أو عن مجموع نصوص الكتاب والسنة ، تماماً كما أنه غير محتاج إلى دليل خارج عنه لإثبات مصداقيته . فالقرآن دليل على صدق القرآن ، وا لله تعالى شهد لنفسه ، ومن أصدق من ا لله قيلا قال تعالى ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل ا لله﴾ الأنعام:١٩ ، وقال سبحانه ﴿ شهد ا لله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ آل عمران:١٨ .

إن الدين إنما هو مجموع نصوص الكتاب والسنة . ولو كانت هذه النصوص بحاجة إلى أدلة عقلية من غيرها لكان الدين ناقصاً ، ولكان ا لله محتاجاً لغيره . وا لله أكمل لنا الدين قال تعالى ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم ﴾ المائدة:٣ ولايمكن أن يكون النص ، وهو إلهي ، بحاجة إلى العقل ، وهو بشري . فالنص الإلهي مطلق والعقل نسبي ، والنص كامل والعقل ناقص . والعقل إنما هو وسيلة لفهم الدين وفق الأصول التي جاءت في الدين ، ولايمكن أن يكون وسيلة للتحايل على النصوص والفرار من أحكامها . فالعقل ضروري ؛ لكنه محكوم للوحي لا حاكم عليه ، أو متحكم به .

إن استقلالية النصوص واضحة بينة من قوله تعالى ﴿ وأوحي إلي هذا

القرآن لأنذركم به ﴾ الأنعام : ١٩ ، وهذه الأية دليل بين واضح على هذا الاصل . إذ كيف يأمر الله رسوله أن يُنذرَ بالقرآن الكفار الذين كذبوا رسوله، وكذبوا كتابه لو لم تكن نصوص القرآن أدلة عقلية أيضاً .

واستقلالية النصوص إنما تأتي من كون الإسلام منهجاً جامعاً بين الوحي والعقل . فالأدلة الشرعية هي بحد ذاتها أدلة عقلية . ولئن لم يكن النص الإلهي الموحي به لفظاً ومعنى من الله (القرآن) أو معنى دون لفظ (السنة) لا يخاطب العقل، وينسجم مع أدلته الصحيحة ، فأي كلام إذن يمكن أن يكون عقلياً !! ونصوص الكتاب والسنة مملوءة بذكر الآيات والبراهين التي يستدل بها العقل . هي للأمثال والبراهين والأقيسة المضروبة في القرآن الكريم . فقد ضرب الله في القرآن الكريم للناس مسلمهم ومشركهم ، مؤمنهم وكافرهم ، من كل مثل . وأمثال القرآن هي أدلته التي توافق العقول الصحيحة . فالبراهين والأدلة العقلية لنصوص الكتاب والسنة أكمل وأبلغ مما جاء به أهل الكلام والفلسفة ، ذلك أن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ويقول ابن تيمية وهو من أبرز رموز المدرسة النصية : " والمقصود أن هؤلاء الغالطين الذين أعرضوا عما في القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية ، لايذكرون النظر والدليل والعلم الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، والقرآن مملوء من ذلك . والمتكلمون يعترفون بأن في القرآن من الأدلة العقلية الدالة على أصول الدين ما فيه ؛ لكنهم يسلكون طرقاً أخرى " (١) .

---

(١) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، معارج الوصول إلى معرفة أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول صلى الله عليه وسلم ، دار البيان ، دمشق ، ١٩٨٠ ، ص١٢ .

وتوضيحاً لبعض الأمثلة على الأدلة العقلية للقرآن الكريم ، فإن الآيات القرآنية أشتملت على أدلة عقلية مثل دليل الخلق أو دليل الابداع أو الاختراع ، ودليل العناية ، ودليل الفطرة ، ودليل النوائب ، ودليل الإتقان والأحكام . وكلها تدل على ربوبية الله تعالى وألوهيته ووحدانيته . كما أن الآيات القرآنية تتضمن الردود على شبه الملحدين من نحو شبهة الطبيعة وشبهة المصادفة . ولما كان القرآن مملوء بذكر الأدلة العقلية فإن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين لم يصرفوا جهداً ولا وقتا في تعلم الأدلة العقلية كما هو معهود عند المتكلمين ؛ لعدم حاجتهم إلى ذلك . كما أن اجتناب الصحابة وتابعيهم الخوض في المسائل الغيبية كالقدر وغيره إنما هو لإدراكهم أنه لا جدوى من البحث فيها ، وأن الأثر الوحيد الذي يمكن أن يسببه النقاش فيها إنما هو العداوة والبغضاء ، وتمزيق وحدة الأمة كما وقع للأمم السابقة . ولهذا " لم يتنازع الصحابة في مسألة عقدية ، وإن تنازعوا في الأحكام "[1] .

وكما يذكر الشاطبي فإن جميع الأدلة المطروقة في علم الكلام وفي فلسفة ما وراء الطبيعة مبثوثة في القرآن ، ولكن بأسلوب يصلح لمخاطبة الخاصة والعامة كل بقدر طاقته . ويفصل السيوطي القول في شمولية أدلة القرآن الكريم في فصل من كتابه " معترك الأقران في إعجاز القرآن " جعل عنوانه (اشتمال القرآن على جميع أنواع البراهين والادلة) قال في مقدمته ما نصه : " وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد يُبْنَى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا

(١) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، أعلام الموقعين عن رب العالمين ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣ ، جـ١ ، ص٥٥ .

وكتاب الله قد نطق به ؛ لكن أورده على عادة العرب دون دقائق طرق المتكلمين ، لأمرين :

أحدهما : بسبب ما قاله تعالى : ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِن رسُولٍ إلاّ بِلِسَانِ قَومِهِ لِيُبَينٌ لهم﴾ إبراهيم : ٤ .

والآخر : أن المائل إلى دقائق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام؛ فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ، ولم يكن مُلْغِزاً ، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة ؛ ليفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة ، وتفهم الخواص من أثنائها ما يُرْبى على ما أدركه فهم الخطباء "[1] .

غير أن لمنهج القرآن الكريم في الاستدلال بالأدلة العقلية مميزات لا يتوفر عليها منهج آخر . فعلى سبيل المثال من مميزات طريقة القرآن الكريم في الاستدلال على التوحيد :

١- ضمّ الأدلة إلى بعضها ، والاستدلال بها كلها .

٢- الرد على جميع المخالفين .

٣- مناسبتها لجميع فئات الناس .

٤- ملاءمتها للفطرة ، وخلوها من التعقيد .

---

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، دار الفكر العربي ، بيروت ١٩٩٠ ، جـ١، ص٤٥٦ .

٥- كونها عملية لا تكتفي بمجرد النظريات والتقريرات .

٦- تنفي الشكوك والشبهات ؛ لإتيانها بمعان صحيحة ثابتة.(١) .

ولما كانت النصوص مملوءة بذكر الأدلة العقلية ، فإنها ليست بحاجة - كما ذكر قريباً- لغيرها . وكذلك في فهمها ليست بحاجة لغيرها . فالنص تبين معناه نصوص أخرى ، ولا سيما السُّنّة ، التي جاءت مبينة لمجمل القرآن ، ومخصصة لعمومه ومقيدة لمطلقه . قال تعالى ﴿وأَنزلْنا إليك الذّكْرَ لتبيّن للنّاس ما نُزّلَ إليهم﴾ النحل : ٤٤ ، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين ما نزل إليهم ، وبلغ البلاغ المبين . فلم يعد في نصوص الكتاب إشكال ولا تشابه غير مفهومين . ولئن كان لايجوز في حقه صلى الله عليه وسلم تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه، فإن ذلك أحرى في العقائد التي بيّنها صلى الله عليه وسلم أوضح بيان ، حتى إن الصحابة لم يكونوا يسألونه في أمور العقائد ؛ لعدم حاجتهم للسؤال عنها ، لتمام بيانه عليه السلام لها . وإنما كانت أسئلتهم في أمور الفقه والمسائل العملية . ومن هنا فإنه عند فهم النصوص العقدية ، لابد أن يكون المبين الأول والشارح لها هو الرسول صلى الله عليه وسلم ثم صحابته الذين نقلوا عنه مسائل العقيدة . لذا فلما كان الصحابة يمتنعون عن القول في العقائد وفي تفسير القرآن بأرائهم ، كان ما صحّ عنهم من أحاديث موقوفة عليهم في هذين المجالين أدلة نقلية صحيحة ، كما صح عن ابن عباس مثلا أن الكرسي موضع القدمين . يقول ابن تيميّة :

---

(١) محمد أحمد ملكاوي ، عقيدة التوحيد في القرآن الكريم ، دار ابن تيمية ، الرياض ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٥ ، ص١٤٣-٣٤٩ .

"وللصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين ، كما أن لهم معرفة بـأمور من السّنة وأحوال الرسـول لا يعرفهـا أكـثر المتـأخرين فـإنهم شـهدوا الرسـول والتنزيل ، وعاينوا الرسول ، وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله مما يستدلون بـه على مرادهم ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك " (١) .

ولما كانت الأدلة النقلية – في نظر أتباع المدرسة النصية – عقلية أيضاً، فإنهم ينفون ويرفضون أي تعارض بين النقلي والعقلـي مـن الأدلـة ، وإن وجـد التعارض فلسبب خارج عن النص ، إمّـا لضعـف في الفهـم أو لغلـط في الدليـل العقلي. وهم يعتقدون استحالة وقوع التناقض بين العقل والنقل . بـل يـرون أن بينهما تعاضداً وتاييداً ؛ إذ يستحيل أن يكـون في النصـوص مـا يخـالف العقـل . لكن في نصوص الكتاب والسنة ألفاظاً قد لا يفهمهـا بعـض النـاس أو يفهمـون منها معنى باطلاً ، فالعلة منهم لا من النصوص المقدسة المنزهة عن كـل نقـص . وفي هذه الحال فإن إخضاع العقل للنص هو ما ينبغي فعلـه ، لأن النـص الإلهـي كامل موحى به ، والعقل بشري ناقص محدود .

وهكذا فلما كان كل ما هو نقلـي عقليـاً لم يتكلـف أصحـاب المدرسـة النصية عناء التوفيق بين الأدلة النقلية والعقليـة ، ولم يسـتخدموا الأدلـة العقليـة المستمدة من الفلسفة اليونانيـة أو غيرهـا لدعـم عقـائد الإسـلام ، لأنـه لم تكـن حاجة لها كما كانت حاجة النصرانية المحرفة للاستعانة بالفلسفة اليونانية والمنطق

---

(١) معارج الوصول ، ص٤٦ .

اليوناني لدعم عقائد مخالفة للعقل الصحيح ونصرتها ، مثل كون الثلاثة واحداً والواحد ثلاثة ، أو اجتماع الناسوت واللاهوت في شخص المسيح ، وكون المسيح هو الله ، وفي الوقت ذاته ابن الله ، تعالى الله عمّا يقولون علوّا كبيراً.

ويرفض النصيون أن يوصف منهجهم بالتقليد ، وأن يوصفوا بالمقلدين. فالتقليد مذموم ، وهو جرى وراء الغير بلا حجّة . ويرون ما هم عليه اتباعاً ، وهو السير على نهج النّبوة بالدليل .

إن الدين يضم بين دفتيه أحكاماً اجتهادية وأحكاما توقيفية . وإن من أبرز الأحكام التوقيفية في الإسلام ما يخص عالم الغيب ، الذي له معالمه وطبيعته وحدوده في الإسلام بطريقة تختلف عما هو عليه في الفلسفة اليونانية التي كان لها دور مهم في صياغة نظريات علم الكلام الإسلامي ، أي ماهي عليه المدرسة العقلية في غالبها. ولما كانت أحكام العقيدة كلها أحكام توقيفية ، أي أننا نتوقف في التعامل معها على النصوص ، فينبغي على العقول أن لا تستبيح الخوض في كل فعل أو أمر إلهي ، لأن هذا ينسف الأساس الذي قام عليه الإيمان، وهو التسليم . ومن هنا كان للعقل استعمالان : استعمال مشروع واستعمال غير مشروع . وأما إعطاء العقل قيمة ودور مطلقين بحيث يكون العقل هو المرجّح عند التعارض مع النقل فإن هذا مرفوض في الإسلام . وهو لم يؤد إلا إلى استبدال العقل بالعقيدة ، فالمفروض والمطلوب تحكيم النص في العقل لا العكس . أما القول بأن استعمال العقل– بالشكل الذي ذهبت إليه المدرسة العقلية متمثلة بالمتكلمين– أمر ضروري لنصرة العقيدة والدين ، وأن النصوص

وحدها لاتكفي لرد شبه الملحدين وأعداد الدين ، فإن مثال هذا القول مرفوض لدى المدرسة النصية لأنه يتضمن التعريض بأن أدلة القرآن ليست عقلية ، كما يتضمن بأن أدلته غير كافية للرد على المخالفين . والله تعالى يقول ﴿ ولا يأتونك بمثل الإجئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ الفرقان : ٢٥ . والقرآن لم يتضمن الرد علىشبه كفار قريش والنصارى واليهود فحسب بل تضمن الردود على شبه الملحدين من لدن أول رسول في تاريخ البشر مروراً بالرسول كافة ، وانتهاءً بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وإنكار أتباع المدرسة النصية على أتباع المدرسة العقلية الكلامية لم يكن منصباً على العقل ، وإنما كان منصباً على جعله الأساس الذي يُتعامل بموجبه مع النصوص وعلى الإفراط في استخدامه مما أدى إلى التفريط في أصول الدين والعقيدة ، بحيث كانت الحجج العقلية مخالفة لدلالات النصوص . وأيضاً كان الاعتراض على " كون الأساليب الكلامية مستقاة من الفلسفة اليونانية . وكان الأحرى الإحالة إلى الأدلة الشرعية ، وفي مقدمتها القرآن الحكيم ؛ لأنه اتجه في خطابه للإنسان باستثارة قوانين العقل وبراهينه وتحريك وجدانه "[١] .

واستخدام المتكلمين العقليين للفلسفة اليونانية في مسائل العقيدة لم يقتصر على استخدام أساليبها بل تعداه إلى استخدام مصطلحاتها بعد نقلها إلى العربية" . "إذن عندما رفض المحدثون منهج المتكلمين وردوه . لم يفعلوا ذلك إنكارا لأحكام العقل وقوانينه ، ولا رفضاً للجدل المبني على أسس منطقية

---

(١) مصطفى حلمي، منهج علماء الحديث والسنة من أصول الدين ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص٧٧ .

برهانية ، ولكن لأن الأصول التي استند إليها علماء الكلام ، إما أنها تلبس المعاني الإسلامية ثيابا ليست لها كمصطلحات الجوهر والعرض والقديم والحادث ، ومثلها من التعبيرات النابعة من الفلسفة اليونانية ، والتي لاتعبر عن مدلولات مشابهة في الإسلام ، أو لأنها تشوه الفكرة وتخلط بين التصورات لأن صلة الفكر باللغة صلة دقيقة ، وقد وضع المتكلمون هذه المصطلحات أولا ثم أرادوا إنزال كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم على ما وضعوه من اللغة والاصطلاح "[١] .

إن العقل وسيلة للفكر ، ولايمكن أن يكون مصدراً للفكر الديني ، أما مصدر الفكر الديني فهي النصوص . والعقل مناط التكليف ، وهو ضروري لإدراك الربوبية ولولاه لم يكن تكليف ولا توجه أمر ولا نهي . وإعمال العقل ضروري لكن ينبغي أن يتم وفق مقاييس منضبطة تحقق الغايات التي من أجلها نزلت النصوص . فمن وظائف العقل المشروعة البحث عن النص الذي يزيل الأشكال بين نصين . هذا بالإضافة إلى استخدام قواعد أصول الفقه في فهم النصوص والكشف عن طبيعة العلاقة بينها . ومعلوم أن قواعد أصول الفقه عقلية مستندة إلى باب الاستعمال المشروع للعقل . كما أن الاجتهاد والاستنباط مظهران من مظاهر التفكير العقلي ، وكلاهما معترف به من لدن المدرسة النصية ، لكن ليس في مجال العقيدة التي تعد توقيفية لا اجتهاد فيها .

إضافة إلى ما سبق من مظاهر استخدام العقل لدى المدرسة النصية ، فإن

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص١٤٧ .

هناك مظاهر أخرى تتجلى في استخدامه من لدن علماء الجرح والتعديل لتمحيص الأحاديث ونقدها .

كل ما سبق ولاسيما قواعد أصول الفقه – الذي يصفه البعض بأنه رياضيات الإسلام – يعد من مظاهر استعمال العقل لدى المدرسة النصية ، لكن وفق ضوابط لا تؤدي إلى التعسف في تأويل النصوص ونفي ما أثبتته وإنما تؤدي إلى إثبات ما أثبته القرآن والسنة . وهكذا فإن العقل –في نظر أصحاب المدرسة النصية– لم يتم جحده أو التنكر لدوره وأهميته ووظائفه الطبيعية . ومن جهة أخرى فإن نصوص الكتاب والسنة في نظرهم ليست مجموعة نصوص بقدر ماهي أدلة نقلية وعقلية معاً ، وأنه ينبغي التزام طريقة السلف في النظر العقلي ، وهم الصحابة وتابعوهم . فهؤلاء كانوا أهل نظر ودراية ، إضافة إلى كونهم أهل نقل ورواية . وكان لهم منهجهم وطريقتهم المنسجمة مع أساليب القرآن لا أساليب اليونان . والقول بأن الأدلة النقلية ليست عقلية لا يعد طعنا في القرآن والسنة فحسب ، بل يعد أيضاً طعناً في الصحابة . وفي هذا يصف الشيخ محمد أبو زهرة أصحاب المدرسة النصية بقوله : " ويقررون أن تلك الأساليب العقلية مستحدثة في الإسلام ، ولم تكن معروفة قطعا عند الصحابة والتابعين ، فإذا قلنا إنها ضرورية لفهم العقائد فمؤدى ذلك أن هؤلاء السلف ما كانوا يفهمون العقائد على وجهها، ولا يدركون على الوجه الأكمل أدلتها ؛ وإن لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يعرف معنى ما أنزل عليه من هذه الآيات ، ولا أصحابه يعلمون ذلك، فإن قولهم يعني أنه لم يكن يعرف معنى ما

تكلم به من أحاديث الصفات ، بل يتكلم بكلام لا يعرفه "[١] .

لقد كان تأويل نصوص العقيدة ، ولاسيما تلك المتضمنة للصفات الالهية معلماً من معالم الافتراق والاختلاف بين الأمة . ولم يكن الأمر كما وصفه الجابري بقوله : " ولعله من المناسب أن أشير هنا إلى أن علماء الإسلام مجمعون كلهم ، ولو بدرجات متفاوتة ، على أمرين اثنين أساسيين : أولهما اللجوء إلى تأويل ظاهر النص عندما يتعارض هذا الظاهر مع ما يقرره العقل . هذا علىمستوى العقيدة ، أما على مستوى الشريعة ، ففقهاء الإسلام مجمعون كلهم على اعتبار المصلحة العامة المقصد الأول والمرجعي لمقاصد الشريعة " .

والحق أن الاختلاف قد وقع وبشكل واسع . أما النصيون فإنهم يرون أن الواجب في نصوص القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف ، لاسيما نصوص الصفات حيث لامجال للرأي فيها . فهم يجرونها على ظاهرها وحقيقة معناها اللائق با لله عز وجل من غير تكييف ولا تمثيل . يقول الشنقيطي "والتحقيق الذي لاشك فيه ، وهو الذي كان عليه أصحاب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وعامة علماء المسلمين أنه لايجوز العدول عن ظاهر كتاب ا لله وسنة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في حال من الأحوال بوجه من الوجوه ، حتى يقوم دليل صحيح شرعي صارف عن الظاهر إلى المحتمل المرجوح "[٢]

---

(١) محمد أبو زهرة ، تاريخ المذاهب الفقهية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص١٨٩ .

(٢) محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، الإقليد للأسماء والصفات والاجتهاد والتقليد ، مكتب إبن تيمية ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص٢٥ .

ويحتج النصيون على حتمية الأخذ بظواهر النصوص بأن الصارف لكلام ا لله تعالى ورسوله عن مظاهره إلى معنى يخالفه قد قفا ما ليس له به علم.[١] كما أن صرف نصوص الصفات عن ظاهرها مخالف لما كان عليه النبي صلى ا لله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وأئمتها فيكون باطلاً ، لأن الحق بلا ريب فيما كان عليه النبي وسلف الأمة وأئمتها[٢] . ويقول الشيخ محمد الجكني الشنقيطي : "فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة . فإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع بحق"[٣] .

ويستشهد أصحاب المدرسة النصية المعاصرون بأبي حامد الغزالي أبرز أعلام المدرسة العقلية القائلين بالتأويل ورجوعه عنه ورفضه له قبل وفاته ، إذ يقول: " اعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر ، هو مذهب السلف أعني الصحابة والتابعين ، ثم قال : إن البرهان الكلي على أن الحق في مذهب السلف وحده ينكشف بتسليم أربعة أصول مسلمة عند كل عاقل .

الأصل الأول : أن النبي صلى ا لله عليه وسلم هو أعرف الخلق بصلاح أحوال العباد في دينهم ودنياهم .

---

(١) محمد الصالح العثيمين ، القواعد المثلى في صفات ا لله وأسمائه الحسنى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٢ ، ص٤١ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الإقليد للأسماء والصفات والاجتهاد والتقليد ، ص٧٤ .

الأصل الثاني : أنه بلغ كل ما أوحى إليه من صلاح العباد في معادهم ومعاشهم، ولم يكتم منه شيئاً .

الأصل الثالث : أن أعرف الناس بمعاني كلام الله وأحراهم بالوقوف على أسراره هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لازموه وحضروا التنزيل ، وعرفوا التأويل .

الأصل الرابع : أن الصحابة رضي الله عنهم في طول عصرهم إلى آخر أعمارهم ما دعوا الخلق إلى التأويل "(١)

وفي حين يقف النصيون مثل هذا الموقف الحازم إزاء تأويل الصفات والأخبار عن حقائقها ، فإنهم يؤكدون على أن معانيها مفهومة ، وهم بذلك يقفون موقف المعارض لتيار آخر من تيارات المدرسة العقلية وهو تفويض معاني الصفات . إذ يلزم معه في نظرهم أمران :

أ- القول أن الله خاطب عباده بأهم أصول العقيدة (وهي الصفات) بلغة غير مفهومة لهم ، وهذا نقص لا يليق أن يُنْسبَ لله تعالى .

ب- ويلزم معه القول بنسبة العبث لله ؛ لأنه كلفهم بالإيمان بما لايفمونه كما أنه يستحيل أن يكون الله جل شأنه قد عمى الحق على الخلق في النصوص؛ ليستخرجوه بعقولهم الناقصة المتفاوتة المختلفة المضطربة .

وبناء على ذلك فهم على خطى الإمام مالك الذي أجاب عندما سئل عن الإستواء : " الإستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة " (أخرجه

---

(١) محمد بن محمد الغزالي ، إلجام العوام عن علم الكلام ، مكتبة الجندي ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص٣٧٣ .

الدارمي في " الرد على الجهمية" ص٣٣ ، واللالكائي (١/٩٢/١) ، وهذا يصدق على كل الصفات الإلهية عند أهل السنة والجماعة .

ويجادل النصيون بأنه " ثبت أن الشريعة حجة على العباد ، ولا تقوم الحجة إلا على من فهمها وأدركها ، ولهذا لاحجة على المجنون والصبي ومن في حكمهما، فمن قال إن نصوص الشريعة غير معقولة المعاني ، فقد أنزل جميع الأمة ، وفيهم خيارها من الصحابة والتابعين وأئمة الدين ، منزلة الصبيان والمجانين ، وأبطل حجية الشريعة على العالمين "(١) .

إن ما اختاره أرباب المدرسة العقلية من القول بتأويل نصوص الصفات لهو في غاية الخطورة ، ولذلك نتج عنه مسائل عديدة أربكت فكر الأمة ولوثته وشغلتها منذ زمن بعيد . من تلك المسائل : المجاز والحقيقة ، ظاهر النص وباطنه، تناقض النصوص . أما المجاز فقد استعمله العقليون لتأويل الصفات . ولذلك فإنه أي المجاز كان موضوعاً لكثير من الجدل بينهم وبين النصيين الذين حاولوا بكل طريقة إثبات عدم جواز القول به في نصوص الصفات ، وذلك لقطع الطريق على العقليين . وقد بحث ذلك ابن تيمية في كتاب "الإيمان" وابن قيم الجوزية . في كتابه "الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة" وإبطال المجاز للقاضي أبي يعلى . ومن النصيين المعاصرين ممن وقف لنفي المجاز الشيخ محمد الجكني الشنقيطي في كتابه "الإقليد في الأسماء والصفات والتقليد " وفي كتابه " منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز " . وكذلك الشيخ محمد شقرا في

---

(١) عثمان بن علي بن حسن ، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة ، مكتبة الرشد، الرياض ، ١٩٩٢ ، ص٥٩٤ .

كتابه " ردّ المجاز " من مطبوعات ١٩٩٦ . وتعرض للمجاز بالنقض كذلك الشيخ محمد خليل الهراس من سلفيي مصر المتأخرين في كتابه " دعوة التوحيد " حيث وضع شروطاً للأخذ بالمجاز من المتعذر الأخذ بها . إذ يقول : " على أن دعوى المجاز لايمكن أن تسمع، فإن اللفظ المستعمل في معنى بطريق الحقيقة لا يجوز صرفه عن معناه إلى معنى آخر بطريقة المجاز إلا إذا اجتمعت له أربعة أشياء.

١- أن يكون ذلك المعنى المجازي مما يصح أن يراد من اللفظ بأن يكون مستعملا فيه في لغة العرب ، وإلا لأمكن لكل أحد أن يفسر أي لفظ بأي معنى ، وإن لم يكن له أصل في اللغة .

٢- أن يكون مع اللفظ قرينة سمعية أو عقلية توجب صرفه من حقيقته إلى مجازه.

٣- أن لايكون هناك معارض لتلك القرينة يقتضي إرادة الحقيقة ، وإلا وجب إرادتها من الفظ ، وامتنع تركها .

٤- أن المتكلم بكلام يريد به خلاف ظاهره لابد أن يبين ذلك ، لاسيما في الخطابات العلمية التي يراد بها الاعتقاد "[١] .

وترتبط بالتأويل مسألة أخرى هي ورود ما ظاهره التعارض بين النصوص . وقد سلكت أمتنا مسلكين في التعامل مع هذه المسألة . ففي حين لجأ العقليون إلى التأويل كمخرج لهذا المأزق ، فإن النصيين لم يلجاؤا إليه بدعوى

(١) محمد خليل الهراس ، دعوة التوحيد ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص٢٣ .

أنه يؤدي إلى تفضيل نص على نص ، وإعمال أحد النصين ، وإهمال الآخر . وبدلاً من ذلك لجأوا إلى تفسير النص في ضوء سياقه ، وفي ضوء النصوص الأخرى .

إن القول بأن للنص ظاهراً وباطناً أمر غير مقبول . وهو كما أسلفت آنفا – له ارتباطه بقضية التأويل – فكون النص له ظاهر وباطن ، وكون ظاهره معلوماً، وباطنه غير معلوم كل ذلك يستلزم البحث عن باطنه .

أما النصيون فإنهم يرون أن النص المقدس يتصف بالكمال ظاهراً وباطناً. وأن كون ظاهر الكلام شيئاً ، وباطنه شيء آخر أمر لايليق بالبشر الاتصاف به فضلاً عن الله تعالى المتصف بكل كمال والمنزه عن كل نقص . وهل يعني القول بأن ظاهر بعض الآيات كفر وباطل إلا أن الله لا يحسن الكلام، وأنه خاطب عباده بشيء ، وأراد منهم شيئاً آخر فعمى الحق عنهم .

وثمة نقطة اختلاف رئيسة بين المدرستين فيما يخص الأسماء الصفات . ففي حين يعتقد أتباع المدرسة النصية عدم محدودية الأسماء والصفات . فصفات الله لايعلم عددها إلا الله تعالى ، فإن أتباع المدرسة العقلية حدّدوا الصفات بأعداد معينة . فعلى سبيل المثال حددها الأشاعرة بنحو عشرين صفة .

وختاماً فإن البحث في معالم المدرسة النصية طويل وطويل . ويمكننا أن نقدم صورة مختصرة لتلك المعالم بالنقاط التالية :

١- الإيمان بجميع نصوص الكتاب والسنة الصحيحة ومعاملتها على أساس صلاحيتها لكل زمان ومكان ، وأنها الحكم في جميع الأقيسة العقلية ،

والاجتهادات النظرية والمكاشفات الصوفية .. ومتى صح النص لا يعدل به إلى شيء آخر ، ولا يلتفت إلى ما يعارضه من استنتاجات عقلية .

٢- أن نصوص الكتاب والسنة تشتمل على أصول الدين دلائله ومسائله . وقد جاء بيان أصول الدين تاماً كاملاً في الكتاب والسنة .

٣- مسائل العقيدة من الثوابت التي جاء بها جميع رسل الله لا نسخ فيها ، ولا تعديل ، ولاتأويل .

٤- لا وجود لظواهر النصوص وبواطنها فظواهر النصوص مطابقة لمراد الشارع، وهي مفهومة لدى المخاطبين ، وينبغي إجراؤها على ظاهرها دون تحريف أو تعطيل .

٥- لا تعارض بين النقل والنقل ولا بين النقل والعقل . ولابد في الاستدلال على صحة العقل من صحة النقل ، أي أن تكون الأحاديث صحيحة .

٦- كل ما تنازعت فيه الأمة من أصول الدين وفروعه يجب رده إلى الكتاب والسنة .

٧- ينبغي العمل بالمحكم والإيمان بالمتشابه الذي لا يعلمه إلا الله كحقائق الصفات الإلهية ، والتسليم به دون البحث فيه .

٨- سلف الأمة من الصحابة والتابعين أعلم الأمة بالوحي واللغة وأدقها في الفهم والرواية . وهم تلاميذ مدرسة النبوة الذين يجدر بنا اتباعهم .

٩- العقل " ليس عنصراً مستقلاً من عناصر الاستدلال في مسائل العقيدة ،

وليس له من السلطة في شؤون الدين ما يقوى به على مزاحمة النص ، فضلا عن تقديمه عليه . ووظيفته أن يفهم ما جاءت به النصوص القرآنية والنبوية ، دون أن يبتكر من عنده شيئاً ، لأن الدين جاء بقضاياه مبرهنة مدللة، وليس على العقل إلا أن ينظر في تلك الادلة والبراهين ، ويعمل في التفكير فيها ليحل لديه اليقين والإيمان"[١].

١٠- استخدام طرق القرآن في الحجاج والجدل والتعبير عن مسائل العقيدة ، وحقائق الإيمان بمصطلحات الكتاب العزيز .

١١- عدم الجنوح إلى جانب واحد من النصوص ؛ لأن هذا يؤدي إلى الخروج بأحكام غير صحيحة كما وقع للخوارج حينما حكموا على مرتكب الكبيرة حكماً فيه غلو ، ولم يدركوا النصوص الدالة على أن الإيمان لم يَزُلْ منه بالكلية .

١٢- وجوب التفكير في النصوص على أساس اللسان العربي ، والعناية بما حول النص من ملابسات لغوية أو تاريخية أو المناسبات التي جاءت فيها النصوص. فما حول النص يعين على تحديد المعنى ، وبيان المقصود بالنص[٢] .

---

(١) خالد عبد الرحمن العك ، الأصول الفكرية للمناهج السلفية عند ابن تيمية ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٥ ، ص١٥٢ .

(٢) مصطفى حلمي ، قواعد المنهج السلفي ، دار الأنصار ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص٨٣ .

معالم المدرسة العقلية :

لئن كان أهل الحديث أو أصحاب الاتجاه السلفي هم الذين عبروا ، ويعبرون عن وجهة نظر المدرسة النصية . فإن الذين عبروا ويعبرون عن وجهة المدرسة العقلية كثيرون يمثلهم المعتزلة والمتكلمون أصحاب المذاهب في العقيدة كالاشاعرة والماتريدية : بل يمكن أن يوصف كل من لم يلتزم بمنهج المدرسة النصية ومعاييرها بأنه من المنتسبين للمدرسة العقلية بما في ذلك المتصوفة والشيعة .

إن وصف المدرسة العقلية بهذه الصفة – كما وسبق أن بينت – لا يعني تنكرها وإنكارها للنصوص ، وإلاّ لما جاز لنا وصفها بأنها إحدى مدرستي التفكير في مسائل العقيدة الإسلامية ، وإنما يعني أنها اتخذت منهجاً مغايراً للمدرسة النصية في فهم دلالات النصوص ، وفي التعامل معها ، وفي إعطاء العقل دوراً أهم وأخطر من دوره عند النصيين . وأيضاً فإنها تختلف عن المدرسة النصية في رؤيتها لإمكانية وقوع تناقض بين العقل والنقل . فليس كل ما هو نقلي عند أتباعها عقلياً بالضرورة. وهم متفاوتون في اهتمامهم بالعقل . فالمعتزلة غلوا فيه إلى حد التقديس ؛ فنصبوه حكماً على النصوص ، لكنهم ليسوا في ذلك سواء ، فالأشاعرة دونهم في ذلك .

لقد ذكرت آنفاً أن المدرسة العقلية تعترف بالنصوص ، غير أن هذا ليس على إطلاقه . فاعترافها إنما هو بنصوص القرآن الكريم من حيث قطعية ثبوتها ، أما دلالتها فإنها بما في ذلك نصوص العقيدة ظنية . أما نصوص السنة فإنها ظنية الثبوت باعتبار أكثرها أحاديث آحاد . وقد رفض أكثر أتباع المدرسة

العقلية الاحتجاج بالآحاد في مسائل العقيدة . ومن هنا فإن مجال الحركة للعقل واسع ، فدلالة نصوص القرآن ظنية بحاجة للتأويل . ونصوص السنة لا تقوم بها حجية في مسائل العقيدة ، فلا يمكن أن تشكل قيوداً على حرية التفكير العقلي الذي اتخذوه منهجاً . بل وأنكر بعضهم المتواتر من الأحاديث كما ذهب إليه النظام من المعتزلة. وقد أدى ظهور الخلاف بين المدرستين بهذا الخصوص إلى ظهور كثير من الكتب قديماً وحديثاً ، يدور الجدل فيها حول حجية السنة في مسائل الاعتقاد .

وبما أن كثيرا من نصوص القرآن العقدية ظنية الدلالة ، عند أصحاب المدرسة العقلية ؛ فقد رأوا أنه ينبغي أن يُصار إلى التأويل . وقدأدى ذلك إلى التأكيد على ظاهرة المجاز في القرآن لتبرير التأويل فمثلاً (إلى ربّها ناظرة) الآية الكريمة مجاز ، وتأويلها منتظرة ثواب ربّها . وهكذا تم نفي صفات إلهية أثبتتها نصوص الكتاب والسنة . وهذا النفي للصفات سماه النصيون تعطيلاً ، وسموا فعالية مُعطلة .

غير أن نفي العقليين للصفات لم يكن عاماً شاملاً ، وإنما كان نفياً لصفات دون صفات ، وهو أمر عابه عليهم النصيون ، إذ وصفوهم بالتناقض مع أنفسهم. ذلك أنهم نفوا مثلاً صفات كالاستواء على العرش والوجه واليدين ، باعتبارها صفات بشرية ينبغي تنزيه الله عن الاتصاف بها لاشتراكه سبحانه والمخلوق فيها. وأثبتوا السمع والبصر والحياة لله ، لكنهم لم يقدموا

دليلاً نقلياً على اختيارهم لصفات إلهية معينة ، ثم نفيها ، ثم تأويلها . وترك بقية الصفات دون نفي أو تأويل. كما أن نفي العقليين للصفات الإلهية لم يكن مجمعاً عليه بينهم ، فمنهم من نفى صفا تأثبتها غيره ، ومنهم من نفى عدداً من الصفات أكثر من تلك التي نفاها غيره منهم .

ولقد دافع العقليون عن منهاجهم في التعامل مع النصوص ، وفي منح العقل سلطاناً على النقل بحجج عديدة منها :

١- أن كثيراً من نصوص القرآن يمتنع ، ويستحيل إجراؤها على ظاهرها . ذلك أن ظاهرها لا يليق با لله تعالى . بل ذهب بعضهم إلى أن ظواهر كثير من نصوص القرآن كفر[١] " فلما دل الدليل العقلي على استحالة تلك الظواهر كان اعتقادها مكابرة للعقل ، وكان إنكارها تكذيباً بالشرع . فوجب إزالة للتعارض تأويلها بما يوافق حكم العقل . وما دامت اللغة العربية قد وردت بالحقيقة والمجاز، واستحال حمل هذه الظواهر على معانيها الحقيقية عند العقل ، ووجب صرفها إلىمعان أُخر بطريق المجاز "[٢] .

٢- أن ا لله تعالى ذم التقليد ، وحث على التفكير ، واستعمال العقول ، وأثنى على أولي الألباب وأولي الأبصار ، وقد جدّ من الشبهات ، وطرأ من التهم للدين والعقيدة ما لم يكن زمن الصحابة . فلابد من التكيف

---

(١) أحمد بن محمد الصاوي، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، جـ٤، ص١٩ .

(٢) دعوة التوحيد ، ص٢٢ .

من الظروف الجديدة ، سيما بعد أن دخل في الإسلام أمم كثيرة وكثر أعداؤه الذين راموا هدمه بالأدلة العقليـة . فلابـد مـن الـرد علىالعقـل بالعقل عملاً بأمر ا لله بمجادلة المشركين بالأدلة والبراهين العقلية .

٣- أن التعارض بين الأدلة النقليـة والعقليـة أمـر وارد وثـابت ، فلابـد مـن التوفيق بردّ المتشابه ، للعقل وورود المتشابه في نصوص القرآن الكريـم أمر لايستطيع إنكاره مسلم . فلابد دفعاً لأي شك العمل على توضيـح المتشابه بردّه للعقل ، وبيانـه بالأدلـة العقليـة وهكـذا يتـم التوفيـق بـين الأدلة النقلية والعقلية .

٤- " أن ظهور علم الكلام في زمن أتباع التابعين اسـتتبعه استحسـان ، وتم تدوينه بالكتب ، فيعدّ مـن هـذا الوجـه مـن قبيـل البدعـة الحسـنة ، بـه انزاحت الشّبه عن قلوب أهل الزيغ ، وثبت قَدَمُ اليقين للموحّدين .

٥- أن أدلة العقول لازمة لبيان صحة أصول الدين وحقائقها ؛ لأن المنهـاج الصحيح في معرفة حقّ الكتاب وصِدْق الرسول صلى ا لله عليـه وسـلم مستمدان من البراهين العقلية .

٦- إذا جعل أصل الدين الاتباع – لا العقل – فإن ذلك مخالفـة للكتـاب ؛ لأن ا لله تعـالى ذم التقليـد في القـرآن ، ونـدب النـاس إلى النظـر والاستدلال أمراً بمجادلة المشركين بالدلائل العقلية . ومَن تدبّر القرآنَ، ونظرَ في معانيه ؛ وجدَ تصديق هذا الأصل "(١) .

---

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، صون المنطق والكلام عن فن المنطـق والكـلام ، دار الكتـب العلمية ، بيروت ، ١٩٤٧ ، ص١٥٧ .

٧- أن العقل أصل النقل ، ذلك أن العقل هو الأداة التي أمكننا بواسطتها معرفة صدق النقل ، وهو أيضاً الأداة التي يدافع بها عن الشريعة .

٨- أن الصحابة لم يحيطوا بأمهات أصول الدين ، ولم يشغلوا أنفسهم بعلم الكلام ؛ لانشغالهم بالجهاد ، وفتح البلاد ، وحماية الدين .

٩- أن أهل الحديث دائما عاجزون عن مجادلة أعداء الدين من المتكلمين . والسبب قلة بضاعتهم في علم الكلام .

ويوجز خالد العك معالم منهج المتكلمين بقوله " ونتيجة لاستقراء آراء المتكلمين في المسائل الكلامية فإنه يتبين أن منهجهم قد انحصر في الطرق التالية:

أولاً : اعتمد منهج إقامة البراهين للعقيدة على الأساس المنطقي . وليس الأساس الحسّي .

ثانياً : تجاوز البحث في المحسوس إلى ما وراء المحس ، فقد أفرط المتكلمون في البحث فيما وراء الطبيعة .

ثالثاً : إعطاء العقل حرية البحث في كل ما يدرك وما لايدرك . فبحثوا في صفات الله وعلاقتها بالذات الإلهية .

رابعاً : جعل العقل أساساً لفهم القرآن الكريم .

خامساً : جعل خصوبة الفلاسفة أساس دراساتهم . فقد أخذوا من الفلسفة قدراً كبيراً للرد على أصحابها ؛ فاخذوا من الفلاسفة ، ثم ردوا عليهم منها"[١] .

---

(١) الأصول الفكرية للمناهج السلفية عند ابن تيمية ، ص١٢٠ .

أما موضوعات علم الكلام الرئيسة فإن أهمها :

١- الرد على الدّهرية القائلين بِقدَم العَالَم .

٢- الرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

٣- الكلام في الصفات بصفة عامة ، والتوسع في الحديث عن صفات كالرؤية والكلام .

٤- البحث في كون أفعال العباد مخلوقة ، أو غير مخلوقة .

٥- البحث في حكم مصير من مات مرتكباً للكبيرة .

٦- الرد على إنكار النبوة بعامة ، ونبوة محمد صلى ا لله عليه وسلم بخاصة.

لقد وُصف أتباع المدرسة العقلية بالمتكلمين ، ووصف علمهم بعلم الكلام، وليس هناك رأي واحد بين العلماء حول سبب هذه التسمية . فهناك أراء عديدة أورد سعد الدين التفتازاني منها :-

١- " لأن عنوان مباحث المتكلمين في العقائد كان " الكلام في كذا وكذا.." فسمى الكلام .

٢- لأنه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات ، وإلزام الخصوم ، فهو لها كالمنطق للفلسفة .

٣- لأن هذا العلم لا يتحقق إلا بالمباحثة وإدارة الكلام من الجانبين على حين أن غيره من العلوم قد يتحقق بالتأمل ومطالعة الكتب .

٤- لأنه أكثر العلوم خلافاً ونزاعاً فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين ، والرد عليهم .

٥- لأنه لقوة أدلته صار كأنه هو الكلام دون ما عداه من الكلام .

٦- ونظراً لقيامه على الأدلة القطعية المؤيد أكثرها بالأدلة السمعية ، كان أكثر العلوم تأثيراً في القلب وتغلغلا ؛ فسمى الكلام مشتقاً من الكلم ، وهو الجرح[١] .

أما عن طريق أتباع المدرسة العقلية في فهم العقائد الإسلامية ، فإنه يمكن تقسيمهم إلى أربعة أقسام كمانقل عن ابن تيمية الشيخ أبو زهرة - رحمه الله - .

١- الفلاسفة ، وهؤلاء يقولون : القرآن الكريم جاء بالطريقة الخطابية والمقدمات الإقناعية التي تقنع الجمهور ، ويدعون أنهم هم أهل البرهان واليقين ، والعقائد طريقها البرهان واليقين .

٢- المتكلمون ولاسيما المعتزلة ، وهؤلاء يقدمون قضايا عقلية قبل النظر في الآيات القرآنية ، فهم يأخذون بالنوعين من الاستدلال ولكن يقدمون النظر العقلي على الدليل القرآني ، فيؤولون على مقتضى العقل .

٣- طائفة من العلماء تنظر إلى ما في القرآن الكريم من عقائد للعقل فتؤمن به ، وربما فيه من أدلة ، فتأخذه لا على أنه أدلة هادية مرشدة موجهة

(١) سعد الدين التفتازاني ، شرح العقائد النسفية ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص١٠ .

للعقل ليلتمس المقدمات من بينها ، بل على أنها آيات إخبارية يجب الإيمان بما اشتملت عليه من غير أن يتخذ مضمونها مقدمة للاستنباط العقلي ، ومن هذا القسم الماتريدية إذ يستعينون بالعقل ؛ ليبرهنوا على عقائد القرآن الكريم .

٤- قسم يؤمن بالقرآن الكريم عقائده وأدلته ، ولكنه يستعين بالأدلة العقلية بجوار الأدلة القرآنية ، وهؤلاء هم الأشاعرة[١] .

ويرى د. عمر الأشقر صاحب المؤلفات العديدة في العقيدة أن أتباع المدرسة العقلية فيما يخص الاحتجاج بالأدلة النقلية طائفتان :

١- طائفة رفضت الاحتجاج بالأدلة النقلية أي بالنصوص القرآنية والحديثية في إثبات العقائد ، وقد زعموا أن الأدلة النقلية لا تفيد اليقين ، ولا تحصل الإيمان المطلوب ، ولا تثبت بها عقيدة . وعللّوا عدم إفادتها اليقين أن الأدلة النقلية مجال واسع لاحتمالات كثيرة تحول دون هذا الإثبات .

٢- الذين يرفضون الاحتجاج بأحاديث الأحاد الصحيحة في باب العقائد ، فلا يحتجون إلا بالقرآن أو المتواتر من الأحاديث ، ولا يثبتون العقيدة بالقرآن والحديث المتواتر إلا إذا كان النص قطعيّ الدلالة[٢] .

ولما كان للمعتزلة من الأهمية في تكوين المدرسة العقلية ما ليس لغيرهم، وجب أن نخصهم بشيء من البحث .

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية ، ص١٨٨ .

(٢) عمر سليمان الأشقر ، العقيدة في الله ، مكتبة الفلاح ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص٤٧ .

المعتزلة :

هم ينبوع المدرسة العقلية . وكل من جاء بعدهم من أتباع المدرسة العقلية كالأشاعرة والماتريدية إنما تأثروا بهم كما تأثرت بهم الشيعة تأثراً واضحاً .

والمعتزلة لم يكونوا من أول نشأتهم إلى أن انطفأت نار سلطانهم على وتيرة واحدة في الفكر ، بل تطوروا وتباينوا من عصر لعصر مع الاحتفاظ بأصولهم ، فلم يكونوا مدرسة واحدة ، بل كانوا مدارس عديدة .

وقد كان المعتزلة أكثر من غيرهم من العقليين في استخدام الأدلة العلقية، وتطويع النصوص الشرعية لها . وجعلوا العقل على رأس الأدلة ، ومنحوه حق التمييز بين الحسن والقبيح ؛ فأسرفوا في تعظيمه وحكّموه في مسائل التوحيد والعدل الإلهي . ويرى الشيخ محمد أبو زهرة : " أن المعتزلة كانوا يعتمدون في الاستدلال لإثبات العقائد على القضايا العقلية ، فكل مسألة من مسائلهم يعرضونها على العقل ، فما قبله أقروه وما لم يقبله رفضوه ، وقد سرى إليهم ذلك النحو من البحث العقلي :

١- من مقامهم في العراق وفارس ، وقد كانت تتجاوب فيهما أصداء المدنيات وحضارات قديمة .

٢- ومن سلائلهم غير العربية إذ كان أكثرهم من الموالي .

٣- ولسريان كثير من آراء الفلاسفة الأقدمين إليهم[١] .

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص١٢٩ .

ويضيف أبو زهرة أن دوافع المعتزلة إلى دراسة الفلسفة أمران :

أحدهما : أنهم وجدوا فيها ما يرضي نهمهم العقلي وشغفهم الفكري ، وجعلوا فيها مرانا عقلياً جعلهم يلحنون بالحجة في قوة .

وآخرهما : أن الفلاسفة وغيرهم لما هاجموا بعض المبادىء الإسلامية تصدى هؤلاء للرد عليهم ، واستخدموا بعض طرقهم في النظر والجدل، وتعلموا كثيراً منها ؛ ليستطيعوا أن ينالوا الفوز عليهم فكانوا بحق فلاسفة المسلمين "[١] .

على أنه من باب الإنصاف لهم فإنه لايمكن التشكيك في نواياهم . وحرصهم على الذّب عن حياض الدين ، " وإنني أوكد أن المعتزلة ظلّوا إلى أن انضموا إلى الرافضة مدرسة فكرية تعيش بين أهل السّنة ، ولم يكونوا في يوم من الأيام مستقلة معادية لهم ، بل كانوا متحمسين للسنة غيورين عليها مدافعين عنها، وإذا كانوا قد تطرفوا في جملة من أقوالهم فإن ذلك لم يقع منهم إلا عن حسن نيّة ، وسلامة طوّية ، ولم يكن إلا نتيجة لأزمة لتعمقهم في درس الفلسفة وهذا ما وصل إليه أحمد أمين حيث قال : وربما أخذ عليهم أي المعتزلة أنهم في سيرهم هذا وراء السلطان العقلي فقد نقلوا الدين (أي الإسلام) إلى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية ، والدّين خلاف الفلسفة "[٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ص١٣١ .

(٢) أنور الجندي ، الإسلام والفلسفات القديمة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص٧٩ .

لقد حمل المعتزلة لواء المعارضة لنصوص الأحاديث ، ورفضوا الأخذ بالأحاديث التي لا يقرها ، ويقبلها العقل في نظرهم . ولهذا لا تصلح الأحاديث، عندهم للاستدلال بها على العقائد . أما إن كانت في محل التعارض مع المعقول الحسي أو الصريح من القرآن الكريم ، فالواجب ردّها لأن الرسول لا يقول الجوَر، ولا يقول ما يخالف القرآن .

ويبدو أن الاتجاه العقلي لدى المعتزلة ظل يتعاظم إلى أن تطور اهتمامهم لينصبّ على التوفيق بين الدّين والفلسفة ؛ مما أدى إلى اختلاط مسائل الكلام بمسائل الفلسفة .

وقد أدى خروج أبي الحسن الأشعري عليهم بالإضافة إلى عوامل أخرى أهمها إكراه المسلمين على القول بخلق القرآن إلى زوال سلطانهم . وكما يقول د.صبحي " لقد كشفت دراسة علم الأديان أن الفِرَق التي تُمثّل النزعة العقلية لم تعمر طويلاً ، وإنما غلبتها الفرق الأخرى "[١] .

الأشاعرة :

وهم من أبرز الرموز الباقية للمدرسة العقلية . صحيح أن اهتمامهم بدور العقل أقل مما كان عليه المعتزلة . وصحيح أنهم حاولوا إعادة تنظيم علم الكلام على قاعدة أن النقل هو الأساس ، وأن العقل خادم للنقل ، وصحيح أنهم تركوا كثيراً مما له صلة بالفلسفة . لكنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من

(١) أنور الجندي ، الإسلام والفلسفات القديمة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص٧٩ .

(٢) أحمد محمود صبحي ، في علم الكلام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص٣٨٥ .

كثير مما كان المعتزلة قد أنشأوه وأوجدوه . ويذكر د. أحمد صبحي أستاذ الفلسفة الإسلامية في جامعة الإسكندرية وأحد المتحمسين جداً للأشاعرة ومواقفهم ما نصه " لقد أصبحت الثقافة الفلسفية العميقة عنصراً مهماً من عناصر تكوين عقلية كبار الأشاعرة ، ولنذكر في ذلك إماماً كالغزالي ومعرفته الدقيقة بالمنطق والفلسفة . ولا يعني ذلك إطلاقاً ردّ آراء الأشاعرة إلى أصول أجنبية ، فلقد كانوا ملتزمين بالعقيدة الإسلامية، وما أفادوه من الفلسفة اليونانية صاغوه صياغة جديدة تلائم الفكر الإسلامي ، وإنما أعني أن مذهب الأشاعرة الذي أراد له مؤسسه أن يكون إلى جانب النقل أميل منه إلى العقل أصبح يستند لدى معظم متكلميهم إلى أدلة العقل، فضلاً عن استخدام المصطلحات الفلسفية إلى حد أن تختلط فيه موضوعات الكلام بموضوعات الفلسفة خصوصاً لدى المتأخرين . ومع ذلك فقد ظلوا ملتزمين بالخطوط العريضة التي بها فارقوا الاعتزال من إثبات الصفات ، وإطلاق المشيئة الإلهية ، وجواز رؤية الله ، والحسن والقبح الشرعيين ، وإنما بفضل ثقافة فلسفية عميقة تمكنوا من تقديم لهذه الموضوعات أقوى واستدلالات أعمق ، ونسق أكثر تكاملاً "[1] .

أقول : كلام د. صبحي ليس على إطلاقه صحيحاً ؛ فالأشاعرة لايثبتون الصفات مطلقاً ، كما إن قولهم في إثبات الرؤية ليس على إطلاقه بل مع نفي لازمها ، وهو اثبات العلوّ لله تعالى .

---

(١) المرجع السابق .

لقد كان مذهب أبي الحسن الأشعري – رحمه الله – نتيجة لمحاولاته التوفيق بين مذهبي العقل والنقل ، أو بين أتباع المدرسة النصية ممثلين بأهل الحديث ، وأتباع المدرسة العقلية ممثلين بالمعتزلة ، غير أن مذهب الأشاعرة لم يستحسنه لا المعتزلة ولا أهل الحديث . وبعد زوال المعتزلة وظهور الأشاعرة أصبح الاتجاهان الرئيسان في ميدان البحث العقدي في مسائل العقيدة حتى عصرنا الحاضر هما أهل الحديث والأشاعرة . وفي ذلك يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق " أما النهضة الحديثة لعلم الكلام فإنها تقوم على نوع من التنافس بين مذهب الأشعرية ومذهب ابن تيمية. وإنا لنشهد تسابقا في نشر كتب الأشعرية وكتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، ويسمى أنصار هذا المذهب الأخير أنفسهم بالسلفية ".

نتائج التفكير العقلي في مسائل العقيدة :

مع بروز المدرسة العقلية في التفكير العقدي – التي ظهرت بوادرها منذ النصف الثاني من القرن الأول – وجدت إلى جانب المدرسة النصية مدرستان فكريتان . وبذلك انتهت الوحدة الفكرية للأمة الإسلامية . ولم يزل الجدل قائماً بينهما إلى يومنا هذا . ذلك الجدل الذي كانت ولاتزال له آثاره السلبية على ماضي الأمة وحاضرها ، وربما مستقبلها . وليس الأمر كما وصفه الشيخ محمد أبو زهرة من أن المذاهب الاعتقادية في تاريخ الإسلام لم تتعدّ الخلاف النظري في أكثر الأحيان [١] .

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص١٩ .

إن ظهور المدرسة العقلية في وقت مبكر من تاريخ الإسلام لم يجعلها ثانية مدرستين فكريتين فحسب ، ذلك أنه لما كان العقل هو السمة الغالبة على هذه المدرسة ، فإن ذلك قد أدى إلى اختلاف أتباعها اختلافاً ظاهراً ، وتفاوت أرائهم تفاوتا بيناً . وهذه نتيجة حتمية طبيعية . فالعقول البشرية مختلفة ومتفاوتة . وكما قال الشنقيطي : " ففريق منهم يقولون : إن العقل يمنع كذا من الصفات ويوجب كذا ، وينفون نصوص الوحي بناءً على ذلك ، فيأتي خصومهم من طائفة أخرى، ويقولون هذا الذي زعمتم أن العقل يمنعه كذبتم فيه ، بل العقل يوجبه "[١] .

وهكذا فلا عجب أن تنقسم المعتزلة إلى اثنتين وعشرين فرقة لكل منها منهجها ومواقفها في التعامل مع أصول المعتزلة الأساسية نذكر منها الواصلية ، والعمروية ، والهذلية ، والنّظامية ، والأسوارية ، والمعمرية ، والإسكافية ، والجعفرية ، والبشرية ، والمردادية ، والهشامية ، والثمامية ، والجاخطية والخابطية ، والحمارية ، والخياطية ، والمريسية ، والشحامية ، والكعبية ، والجبائية[٢] . وانقسمت الشيعة إلى الزيدية والإمامية والإسماعيلية والسبعية والمباركية والدروز والنصيرية التي انقسمت بدورها إلى الحيدرية والشمالية والغيبية [٣] .

وانقسمت الخوارج من قبلهم إلى فرق عديدة نحو عشرين منها المحكمة الأولى والأزارقة والنّجدات والصّفرية والعجاردة والأباضية . وافترقت

---

(١) الإقليد للأسماء والصفات والاجتهاد والتقليد ، ص٥ .

(٢) عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، دار المعرفة بيروت ، ١٩٨٠ ، ص١١٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص٢٩ .

العجاردة فرقاً كثيرة منها الخازمية والشعبية والمعلومية والمجهولية والمعبدية والرشيدية والحمزية والميمونية والإبراهيمية والواقفة . كما انقسمت الأباضية فرقا : الحفصية والحارثية واليزدية . وافترقت المرجئة ثلاثة فرق :-

وهذه الظاهرة غير ملحوظة لدى المدرسة النصية . فإن أتباع هذه المدرسة لم ينقسموا فرقاً وأحزاباً في العقيدة ، لكنهم تباينوا في اجتهاداتهم الفقهية. وهكذا فقد كان انقسام الفرق الرئيسة إلى فرق أخرى شبيهاً بانقسام خلية الأميبا إلى خليتين ، وانقسام الخليتين إلى أربع إلى آخره . ولم تكن العلاقة التي تحكم الفرق علاقة ودية قائمة على الاحترام، فقد وصف كل فريق نفسه بأنه على الحق ، ورمى الآخرين بتهم شتى . فوصف أتباع المدرسة العقلية أتباع المدرسة النصية بالتشبيه والتجسيم والحشو . ورمى أتباع المدرسة النصية أتباع المدرسة العقلية بالتعطيل والتشبيه والتأويل .

وليت الأمر اقتصر على ما سبق . فقد تناولت الفرق بعضها بعضا بالتكفير . فكان التكفير من نتائج التفكير العقلي ، وأول ما بدأ به الخوارج الذين كفروا عَلِيّاً وعُثمانُ والحَكَمَين ، وأصحاب الجَمَل ، وكلّ من رضي بتحكيم الحَكَمين . ثم شمل تكفيرهم مرتكبي الذنوب . وكفّر الأزارقة كلّ من لم يهاجر إليهم ، وإن كان على رأيهم . وكفروا من خلفهم من المسلمين ، وأوجبوا امتحان من ادعى أنه منهم ، واستباحوا قتل نساء مخالفيهم ، وقتل أطفالهم . وأما المعتزلة فيذكر صاحب كتاب " الفَرق بين الفِرق " مانصّه :"وأما القدرية المعتزلة ، فقد افترقت عشرين فرقة كل منها تكفّر سائرها "[١].

(١) المصدر السابق ، ص٢٤ .

وعن أثر علم الكلام في تفريق الأمة يقول أحمد بن تيمية "فليتدبر المؤمن العالم كيف فرّق هذا الكلام المحدث المبتدع بين الأمة ، وألقى بينها العداوة والبغضاء ، مع أن كل طائفة تحتاج أن تضاهيء من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض ؛ إذ مع كل طائفة من الحق ما تنكره الأخرى "(١) .

وقد كان انقسام الأمة فرقاً وأحزاباً وشيعاً ، وانشغالها بالجدال على حساب الإيمان والعمل ، فضاع وقت الأمة الثمين نتيجة لانصرفها عما هو عملي ونافع . وتفتت الأمة وضعفت أمام عدوها ، الذي طمع فيها . وبدلاً من أن تستمر الفتوحات لتشمل الكون ، أخذت الأمة تبذل الجهد الجهيد لصد أعدائها عنها . وهكذا بدلا من أن يكون التوحيد سبباً في وحدة الأمة ، كان علم الكلام سبباً في تفرقها وتشتتها . وبدلا من استغراق المسلمين في تدبر آيات الذكر الحكيم والأخذ بأحكامه ، أهدرت الطاقات والأوقات في المناقشات والمحاورات ، كل ذلك بحجة استخدام العقل في الدفاع عن العقيدة التي تحولت بفضل ذلك من عقيدة سهلة بسيطة حركية نابضة بالحياة فاعلة مؤثرة ومُغيرة إلى أراء ونظريات عقيمة ومملة وجامدة وصعبة . وأن " الاكتفاء بالاطلاع على مؤلفات الفرق يعطي انطباعاً بأن هذه المسائل كانت الشغل الشاغل للمسلمين "(٢) .

---

(١) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ج٢ ، ص٤٠ .

(٢) منهج علماء الحديث والسنة من أصول الدين ، ص٩٨ .

ولا ريب أن انحراف مسار التفكير عما كان عليه الصحابة والتابعون لم يخدم العقيدة . ذلك أن المتكلمين لم يكونوا يقصدون بجدلهم بيان الحق في الاعتقاد بقدر ما كانوا يقصدون غلبة بعضهم بعضاً . ولم يكن علم الكلام وسيلة لغرس العقائد الصحيحة وتنميتها ، بقدر ما كان وسيلة للرياضة العقلية والذهنية . ولم يكن سببا في إزالة الشكوك وتقوية الإيمان بقدر ما كان وسيلة لإثارة الشكوك ، وإضعاف الإيمان . فزيادة الإيمان ، وتقويته تكون – كما هو معلوم – بالعمل لا بالجدل . ومما يؤكد صحة هذه الاستنتاجات ذم كثير من رموز المدرسة العقلية وأعلامها الكبار لعلم الكلام بعد أن مارسوه لعشرات السنين . فهذا الغزالي ذكر عنه غير واحد : أنه رجع في آخر حياته إلى تلاوة كتاب الله ، وحفظ الأحاديث الصحيحة ، والاعتراف بأن الحق هو ما في كتاب الله وسنة رسوله . وذكر بعضهم أنه –رحمه الله– مات وعلى صدره صحيح البخاري . أما الفخر الرازي الذي كان في زمانه أعظم أئمة التأويل فقد رجع معترفاً بأن طريق الحق هي اتباع القرآن في صفات الله . وقد قال في ذلك في كتابه : أقسام اللذات : لقد اختبرت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فلم أجدها تروي غليلا ، ولا تشفي عليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. اقرأ في الإثبات : (الرَّحمنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى) و (إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّب)، وفي النفي : (لَيْسَ كمثْلِهِ شَيْءٌ) ، (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمياً)، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. وقد بيّن هذا المعنى في أبياته المشهورة التي يقول فيها :

نِهـايـةُ إقـدام العُقُـول عِقَال وغـايـةُ سَعْـي العالمين ضَلالُ

وأرواحنا في وَحْشَةٍ من جُسومنا وحاصـل دنيـانـا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنـا طول عمرنا سوى أنّ جمعنا فيه قيْل وقَال

إلى آخـر الأبيـات (ابـن خلكـان ، ١/٦٨٨) " وكذلـك غـالب أكـابر الذين كانوا يخوضون في الفلسفة والكلام ، فإنه ينتهي بهـم أمرهـم إلى الحـيرة ، وعدم الثقة بما كانوا يقررون "[١] .

وقد كان مـن نتـائج التفكـير العقلـي في مسـائل العقيـدة نشـوء عقـائد جديدة ، لم يعرفها المسلمون من قبل مثال البـداء والتّقيـة وعِصْمَـة الأئمـة عنـد الشيعة ، والتناسخ وتأليه الإمام عند الغلاة منهم . وعند الصوفية نشأت عقـائد جديدة كالصّحو ، والمحو ، والحقيقة المحّمدية ، والكشـف ، والدّيـوان الصّـوفي، وتقسيم الدِّين إلى شريعة وحقيقة ، وظاهر ، وباطن . وعند الغلاة منهم نشـأت عقائد جديدة مثل : الحلول والاتحاد ووحـدة الوجـود . وعنـد المعتزلـة : خَلْـق القرآن ، ونفي الصّفات ، ونفي الرّؤية .

لقـد دخلـت دائـرة التفكـير الإسـلامي ألفـاظ لم تكـن شـائعة ، وأعنـى مصطلحات الفلسفة اليونانية . ومن جهة أخرى فإن العقائد المتفـق عليهـا بأنهـا عقائد صحيحة ينبغي السعي إليه ، قد اختلفت على مضمونها . فكل فرقة تـرى

---

(١) الإقليد للأسماء والصفات والاجتهاد والتقليد ، ص٧٧ .

مضمونها من وجهة نظرها ، كالعدل والتوحيد والنهي عن المنكر والتنزيه ، فكانت معانيها مختلفة متباينة متفاوتة عند كل فرقة ؛ إذ تم تفريغها من محتواها ، وملئت مضامينها بالمعاني الخاصة بكل فريق من الفرقاء .

ونتيجة لانشغال المسلمين بإثبات الصفات الإلهية ، أو نفيها ، وتأويلها، أو تفويض حقيقتهاوكيفيتها لله ، وتنزيهها ، أو تشبيهها بغيرها من صفات الخلق ، وتحديدها بعدد ، أو عدم تحديدها . لقد أدى ذلك كله إلى لفت الانتباه عن الغاية الأساس من هذه الصفات ، وهي أن الله تعالى أراد أن يعرفه عباده من خلال معرفتهم لصفاته فيعبدونه بها ، ويحصونها ويشهدونها بقلوبهم ، ويلتزمون بجوارحهم الأدب معه سحبانه .

وفي غمرة الزخم الهائل للنقاش والجدل بين أصحاب النزعات المتعددة في التفكير العقدي ، بُحثت مسائل لم يبحثها السلف الصالح من قبل . وليس هذا موضع نقدنا لها ، لكنها على العموم كانت مسائل عقيمة جدلية بحتة لانفع من وراء بحثها . بل كانت سبباً في تفريق الأمة ، ووقوع البغضاء بين أبنائها من المتجادلين وأنصارهم . من تلك المسائل : هل الله في جهة ، وهل له حدّ ، وهل صفات الله هي ذات الله أو غير ذات الله ، وهل الوجود زائد على الذات أو عينها ، وهل البقاء هو الوجود المستمر أو زائد على الوجود ، وهل الكلام النفسي يسمع أو لا ، وهل تكَوّنُ الأشياء يتعلق بقوله تعالى كن أو لا ، وهل الاسم هو عين المسمى أو لا ، وهل الله يفعل القبيح ، وإذا فعله هل يُوصف بالقبح أو لا ، وهل يجوز في حقّه الخلف في الوعيد أو لا ، وهل يجوز عقلاً العفو عن الكفر أو لا ، وهل القدرة الحقيقية تصلح للضّدين أو لا ، وهل الإيقاع

خال أم معدوم ، وهل ا لله قادر على رؤية بعض الأجزاء التي لا تتجزأ ، وهل ا لله قادر أن يزيد في عذاب أهل النار ذرة ، وهل النبوة ثواب وجزاء على عمل صالح عمله النّبي إلى غير ذلك من عشرات بل مئات المسائل المشابهة .

ونحن هنا لسنا بصدد الحكم على هذه المسائل بالصحة أو البطلان ، كما أننا لسنا معنيين بمقاصد ونوايا أصحابها ، فالمسلم مكلف بالحكم على الظاهر . وهذه المسائل وأمثالها ليست مرفوضة ؛ لأنها لم تُبحث من قبل الصحابة . فنحن لانريد أن نضع قاعدة مضمونها أن كل ما لم يبحثه الصحابة من أمور العقيدة ينبغي أن لايبحثه المسلمون بعدهم في أي عصر من العصور . لكننا نتساءل ما الجدوى العلمية أو العملية من بحث أمثال هذه المسائل ؟ وإن لم تكن هذه المسائل قد أفادت المسلمين في شيء ، فهل ألحقت أو أنها لم تلحق بهم ضرراً ؟!. إن المطلع على مؤلفات الفرق الإسلامية يعلم أن هذه المسائل صرفت المسلمين عن العمل النافع . ونتيجة لجو الحرية الفكرية الذي عرفه وألِفَهُ تاريخُ الفكر الديني للإسلام، فقد سمح بعض المسلمين لأنفسهم بممارسة التفكير دون ضوابط نقلية أو عقلية مستندة إلى أدلة نقلية صحيحة ، أو مستنبطة من استدلالات عقلية صريحة ، فظهر الغلو . من ذلك ما ذكره المتكلمون في كتبهم من عقائد أبي الهذيل والنظام المعتزلين . فقد قسم أبو الهذيل كلام ا لله إلى ما يحتاج إلىمحل وإلى ما لايحتاج إلى محل . وتحدث عن طاعات كثيرة يمكن أن تتم دون أن يُراد ا لله بها . وقال النظام إن ا لله يقدر أن يفعل بعباده : يعمي بصيراً، أو يفقر غنياً إذا علم أن البصر والصحة والغنى

أصلح لهم . وأن الله لا يقدر أن يخلق حية ، أو عقرباً أو جسما علم أن خلق غيره أصلح من خلقه "[١] .

وذهبت الكّراميّة إلى أن الله محل للحوادث والمخلوقات . فكل ما يحدث إنما يحدث في الذات الإلهية . وأن الله جالس على العرش كما يجلس الواحد منا على الكرسي . وجاءوا بأدلة من الآيات القرآنية على جسمية الله تعالى . وذهبت الخوارج إلى أنه لا وسط بين الخطأ والصواب ، وأنه ليس هناك خطا صغير ، فكفّروا مرتكب الاثم . أما المتلفسفة من الصوفية فأعلنوا وأشاعوا عقيدة وحدة الوجود والحلول والفناء . فأما وحدة الوجود فتعني أن لا موجود إلا الله ، وأن ما سوى الله إنما هي مظاهر تتجلى فيها الذات الإلهية . وأما الحلول والفناء ، فهو أن الصوفي إذا بلغ درجة عالية من الطاعات والقربات لله، وصل إلى حالة يتحد فيها مع الله ، فيحلّ الاثنان في بعضهما ، ونشأ عن هذه العقيدة رفع التكاليف عن العبد كما يقول ابن عربي :

الرب عبد ، والعبد رب يا ليت شعري من المكلف

وتطور الأمر إلى أدهى من ذلك كله ، فكان لإباحة التفكير العقلي دون ضوابط أثره في ظهور الفرق الباطنية : " التي تقوم مفاهيمها على الرفض، والتعطيل ، وإبطال النبّوة ، والعبادات ، وإنكار البعث ، والقول بأن للقرآن والأحاديث بواطن تجري مع الظواهر مجرى اللب من القشر . وقد قامت دعوتهم على أساس تأويل آيات القرآن وقالوا : إن الشرائع تلزم العامة دون

---

(١) الفرق بين الفرق ، ص١٢٢ .

الخاصة . ودعوا الخاصة إلى رفع الفرائض وأباحوا لهم المحظورات ، وبلغ من أمرهم أنهم أولوا الصلوات الخمس وصيام رمضان . لقد قامت الفلسفة الباطنية أساساً على الإلحاد في العقيدة والإباحية الأخلاقية . ومن خلال الفلسفة الباطنية قامت دعوات عديدة ، ولم تزل، كلها تعتمد الفلسفة اليونانية والفلسفة الغنوصية معا أساساً لها : وخاصة الأفلاطونية المحدثة . وجرت كلها على التأويل الفلسفي ، والاستناد على مفاهيم أفلاطون من ناحية ، والحق الإلهي في المجوسية الفارسية من ناحية أخرى . وإذا كانت عصارة الفكر البشري الوثني المؤيد بالغنوصية قد عادت لتتشكل من جديد في ظل الإسلام ، وبعد نزول الشريعة الإسلامية في فكر موحد هو رسائل إخوان الصفا (وغيرها كثير من الدعوات ولكنها تمثل أرقى صياغة لهذا الفكر) فإن محاولة هذا الفكر لم تلبث أن دخلت في عديد من محاولات العمل بالتآمر على هدم الجماعة الإسلامية ، وإقامة جماعة الفكر البشري الوثني الغنوصى : وقد تعددت هذه المحاولات في تاريخ الإسلام "[1] .

وقد امتدت واتسعت آثار التفكير العقلي لتشمل النصوص المقدسة . صحيح أن قدسية النص القرآني لم تمسّ من قبل أي مسلم في تاريخ الإسلام ، سوى ما يُقال من تبني بعض الشيعة لمصحف فاطمة . لكن الاتفاق على نصوص القرآن الكريم لم يمنع أهله من الاختلاف على تفسيره وفهمه . فتباين المسلمون واختلفوا وتنازعوا في فهم دلالات النصوص العقدية . وكان للجدل العقيم المستمر دون انقطاع حول نصوص القرآن أثره السّلبى المسلمون في خلو كثير

---

(١) الإسلام والفلسفات القديمة ، ص١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٨ .

من النفوس من هيبة الكتاب العزيز . ولعل كتاب " حجج القرآن لجميع أهل الملل والأديان " لأحمد بن محمد الرازي المتوفى ٦٣١هـ يعد دليلاً بيّناً على اتفاق الأمة على نصية القرآن ، واختلافها على فهمه "[١] .

أما نصوص السّنة ، التي لابد منها لفهم كتاب الله ، وبيان مجمله ، وتخصيص عمومه وتقييد مطلقه ، فقد تجرأ عليها كثير من أرباب التفكير العقلي. وأكثر ما تجرؤا عليه منها أحاديث الآحاد ، فعطلوا الأخذ بها في العقيدة . ومن المعلوم أن السنة أكثرها أحاديث آحاد . بل إن الصحيحين هما من هذا الباب . حتى موقف الأشاعرة الذين هم أقرب الفرق إلى عقيدة أهل السنة والجماعة لم يكن إيجابيا من هذه المسألة . " فالمتواتر منها يؤلونه ، والآحاد لا يأخذون به حتى على سبيل التأويل " حتى إن إمامهم الرازي قطع بأن رواية الصحابة كلهم مظنونة بالنسبة لعدالتهم وحفظهم سواء ، وأن في الصحيحين أحاديث وضعها الزنادقة .. إلى آخره مما تجده في كتابه " أساس التقديس "[٢]، ولم يكن كذلك موقف المدرسة النصية التي أخذت بكل ما صح من الأحاديث دون تفريق بين المتواتر والآحاد . وقد أدى التفريق في العمل بين المتواتر والأحاد إلى تعطيل الإفادة من عشرات نصوص الأحاد في مسائل العقيدة . ومن العقائد التي تستند في ثبوتها إلى أحاديث الآحاد ثبوت الشفاعة

---

(١) أحمد بن محمد الرازي ، حجج القرآن لجميع أهل الملل والأديان ، بدون تاريخ ، مجهول الناشر ، ص٤ .

(٢) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة ، جـ٢ ، ص١٣٥ .

للرسول صلى الله عليه وسلم وحوضه ،وعذاب القبر ، والإيمان بالصراط . والعشرة المبشرين بالجنة ، وأفضلية الرسول على جميع الأنبياء والمرسلين ، وأشراط الساعة ، ومعجزات الرسول غير القرآن ، وصفة الميزان .

وليت المساس بنصوص السنة اقتصر على ردّ الأحاد منها ، وتأويل المتواتر . فقد اتسعت دائرة الهجوم على السنة لتدخل فيها الشكوك التي أثيرت حول تناقض نصوص السنة ؛ مما يشكك في مصداقيتها . وقد ألف ابن قتيبة كتابه"تأويل مختلف الحديث" ليرد أمثال تلك الشبه التي أثارها المعتزلة . وهكذا فقد وجد نتيجة لذلك تراث ضخم يبحث في الدفاع عن السنة . ووجد هذا التراث قديما قبل أن يبدأ المستشرقون حملتهم عليها . من ذلك " مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة " للسيوطي ، و " العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم و " الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم " لمحمد بن الوزير اليماني وغيرها كثير . ولا تزال تكتب عشرات المصنفات في الدفاع عن السنة ضد الهجمة التي تشن عليها من داخل الأمة الإسلامية ؛ مما يؤكد استمرار النزاع بين اتباع المدرستين النصية والعقلية . ومما كتب حديثا في هذا الباب : " الحديث حجّة بنفسه في العقائد والأحكام " و " منزلة السّنة في الإسلام " للألباني .

وتبع الهجوم على السنة هجومُ علىنقلتها عن رسول الله ، الواسطة بين الرسول والأمة أي الصحابة . فكان التشكيك في عدالة الصحابة أثراً من آثار التفكير العقلي غير المباشر . فقد فسّق عمرو بن عبيد أصحاب الجَمَل ، وكان

عمر رضي الله عنه وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان أهدافا لهجمات النظّام. أما الشيعة فحدّث عن عدائهم للصّحابة ولا حَرَج . وهكذا فإن بعض أصحاب الاتجاهات في المدرسة العقلية قد " قدحوا في الرّواة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم وفيمن اتفق الأئمة من المحدثين على عدالتهم وإمامتهم. كل ذلك ليردوا به على من خالفهم في المذاهب وأحيانا كانوا يريدون فتاوى الصحابة أمام العامة لينفروا الأمة عن أتباع السنة وأهلها "[1] .

وقد كان للهجوم على الصحابة رد فعل لدى المدرسة النصية ؛ إذ تصدى كثير من المنتسبين إليها للدفاع عن الصحابة ، فكان جراء ذلك توفر مكتبة غنية من الكتب المتخصصة للدفاع عن الصحابة ، وردّ الشبه عنهم جملة وبالتفصيل . من ذلك النّهي عن سبّ الأصحاب وما فيه من الإثم والعقاب " لمحمد بن عبد الواحد المقدسي "، ومنهاج السنة النبوية " لابن تيمية. ولقد طال النزاع بين المدرسة العقلية وبين أتباع المدرسة النصية وامتد إلى يومنا هذا ؛ إذ لاتزال المؤلفات عن الصحابة تُكتب وتُنشر من ذلك كتاب " منزلة الصحابة في القرآن " لمحمد صلاح الصادي ، و " حقائق عن آل البيت والصحابة " ليونس السامرائي ، و "صحابة رسول الله " لعياده الكبيسي .

وقد أدى الغلو في استخدام العقل والأدلة العقلية في ميادين عديدة إلى "استطالة الملحدين وغيرهم فدخلوا بالدليل العقلي على حرمات العقيدة ، ولاسيما من باب تفويض معاني ألفاظ النصوص . فالأمر دون مبالغة كما قال

---

(١) منهج علماء الحديث والسنة من أصول الدين ، ص٩٧ .

عثمان بن حسن " فأدى إلى استطالة نفاة المعاد وغيرهم من الملاحدة على المفوضة . فيقول الواحد منهم الحق في الأمر نفسه ما علمته برأيي وعقلي ، وليس في النصوص ما يناقض ذلك ، لأن تلك النصوص مشكلة ومتشابهة لا يعلم أحد معناها ، وما لايُعلم معناه لايجوز الاستدلال به ، فيبقى هذا المذهب (التفويض) سداً لباب الهدى والبيان من جهة الأنبياء ، وفتحاً لباب من يعارضهم من أهل الضلالات والملاحدة"(١) .

أما التأويل فإنه باب آخر فتحه أتباع الفرق فكان لغيرهم حجّة عليهم. "فإنهم لما أوّلوا ، تبعتهم الباطنية ، واحتجت عليهم في تأويل الحلال والحرام والحشر والحساب ، وما من حجة يحتج بها الأشاعرة عليهم في الأحكام إلاّ احتج الباطنية عليهم بمثلها ، أو أقوى منها من واقع تأويلها للصّفات"(٢) .

لقد شكل ظهور المدرسة العقلية تحدياً مهماً لأصحاب النزعة السلفية النصية ، وأرغمهم على بحث مسائل ما كانوا يرغبون ببحثها . كما تسبب التحدي الذي صاحب ظهور المدرسة العقلية بزيادة التزام النصيين بمنهجهم ، الشيء الذي يمكن أن يعد ردة فعل قوية لبدع المتكلمين العقليين .

ومن أبرز نتائج التفكير العقلي أنه ترك للأمة تراثاً ضخماً من المؤلفات لأتباع المدرستين النصية والعقلية في شتى مسائل العقيدة . وأن المطلع على مئات بل آلاف المصنفات ليدرك بيقين أنه ما من أمة من الأمم لها مثل هذا التراث

---

(١) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد بعند أهل السنة والجماعة ، ص٥٩٥ .

(٢) سفر الحوالي ، منهج الأشاعرة في العقيدة ، الدار السلفية ، الكويت ، ١٩٨٦ ، ص٥٣ .

الضخم . ولاتزال هذه الأمة فيها من الباحثين والمفكرين والعلماء من يتابع هذه المسيرة إلى يومنا هذا . فالنزاع بين أصحاب الاتجاهين ماض في زخمة دون تباطيء . ولهذا التراث معانيه الإيجابية والسلبية فهو لاشك ، دليل ناصع على توفر الحرية الفكرية المطلقة التي تمتع بها المسلمون على مر أجيالهم . وهو وإن تضمن كثيراً من الكتب والمؤلفات البعيدة عن منهج الكتاب والسنة . إلا أن من نتائجه أن العقيدة الصحيحة ، قد تم بيانها وإيضاحها وتحديدها في مؤلفات عديدة أخرى . وذلك جراء الجدل الطويل المتواصل بين الاتجاهين النصي والعقلي . لكنه من جهة أخرى له دلالته على انشغال الأمة بكثير لم تكن ثمة ضرورة لانشغالها به . ولم تفد منه فاستنفذت الطاقات والجهود في بحث مسائل عقيمة ، هذا بالإضافة إلى إضافة عناصر غريبة عن الإسلام على الفكر الإسلامي .

ولقد كان للاختلاف في مسائل العقيدة آثاره على المذاهب الفقهية . وكان أول من تقبل المنهج الأشعري في العقيدة الشافعية . فقد كان مؤسس المذهب شافعياً . أما المعتزلة فقد كانوا أحنافاً . ولما ضعفت قوتهم أصبح أكثر الأحناف ما تريدية . وفي المغرب انتشر المنهج الأشعري بين المالكية منذ الباقلاني (ت٤٠٣هـ). وهكذا تنافس أتباع المناهج الكلامية المختلفة ليحصل على كل منهم على أكبر حصة من اتباع المذاهب الفقهية . وبقى الحنابلة على اتباعهم لمدرسة النص في العقيدة . وهكذا فقد نهج أتباع المذاهب الفقهية مناهج متباينة في العقيدة ، وأصبح لكل مذهب فقهي ما يميزه عن غيره في

صبغته العقدية .

ومن عجيب وغريب ما يلاحظ من نتائج التفكير العقلي في مسائل العقيدة عند بعض المسلمين ، أنهم بدلاً من محاولة التوفيق بينهم وبين إخوانهم من المسلمين، بذلوا الجهد في التوفيق بين الإسلام والأفكار الغريبة عنه . فكان "تفلسف المسلمين في الجانب الإلهي الإغريقي الذي انحصر في التوفيق والملاءمة بين آراء الإغريق من جانب ، وهدى الإسلام من جانب آخر ، لم يفد الإسلام كدين ، كما لم يترك العقل الإنساني يدرك الفكر الإغريقي على حقيقته ، فلم يفد الإسلام كدين ؛ لأن معتقدات الدين في جانب الله سبحانه ، وهدى بشرحها شرحاً إغريقياً ، أو بإمالة الفكر الأغريقي نحوها ، ومحاولة صهر الطرفين في وحدة واحدة عقّد هذه المعتقدات وأضحى فهمها بعد التعقيد أو بعد تفلسف العقيدة وقفا على طبقة من الناس خاصة ، وهي طبقة العقليين الذين دربوا ذهنهم تدريباً خاصاً على فهم المشاكل الفلسفية الإلهية القديمة ، ومشاكل القرون الوسطى "[١] .

وقد يكون من نتائج التفكير العقلي في مسائل العقيدة ما ذهب إليه ابن تيمية من أن المنطق اليوناني أضرَّ بالعقل ، بل وبالتعبير وفي ذلك يقول " إذا اتسعت العقول وتصوّراتها اتسعت عباراتها ، وإذا ضاقت العقول والتصوّرات بقي صاحبها كأنّه محبوس العقل واللسان ، كما يصيب أهل المنطق اليوناني ، تجده من أضيق النّاس علماً وبياناً وأعجزهم تصوّراً وتعبيراً ، ولهذا من كان منهم ذكيّاً إذا تصرّف في العلوم ، وسلك مسلك أهل المنطق طوّل وضيّق ،

---

(١) قواعد المنهج السلفي ، ص١٥ .

وتكلّف وتعسّف ، وغايته بيان البيّن وإيضاح الواضح من العيّ ، وقد يوقعه ذلك في أنواع من السّفسطة التي عافى الله منها من لم يسلك طريقهم " ، (الرد على المنطقيين ، ص١٦٧) .

ومن الملاحظ أيضاً أنه بقطع النظر عن نوايا ومقاصد بعض أصحاب نزعات التفكير العقلي في مسائل العقيدة ؛ إذ لسنا بصدد التحقيق في النوايا ، لكن الذي وقع فعلاً أنه بدلاً من تحقيق الغاية التي من أجلها قاموا بجدلهم ، فإن الذي صارت إليه الأمور أنهم أثاروا شبهاً بين المسلمين بدلاً من إثبات الحق وبيانه وأفهامه للناس. فلا عجب إذن أن يكتب عالم كالغزالي الخبير بالفلسفة وعلم الكلام كتابه الشهير " إلجام العوام عن علم الكلام " .

إن الدراسات المعاصرة والمطبوعات التي وجدت في أيامنا هذه ، والتي تمثل المدرستين تؤكد بوضوح أن الجدل لا يزال مستمراً بين أصحاب النزعتين النصية والعقلية . وكُتب مثل : " العصريون معتزلة اليوم " تأليف يوسف كمال ١٩٩٠، و " المعتزلة بين القديم والحديث " لمحمد العبده ١٩٩١ وكتاب " جدل الأكفار " لشيخ المعتزلة في الأردن أمين نايف ١٩٩٤ ، والذي يُعد محاولة جريئة لإحياء الفكر الاعتزالي بل ولإعلان اسم المعتزلة من جديد . إن هذه الكتب وأمثالها كثير تؤكد أن النزاع والجدل بين المدرستين مستمر وماض، ومن الصعب إن لم يكن من المستحيل إيقافه . يقول عمر حسنة : " ولا يزال هذا الانشطار الثقافي ، يستنزف الكثير من الطاقات الفكرية والعقلية في العالم الإسلامي ، في معارك مفتعلة ، بين الوحي ، والعقل ، علىالرغم من أن العقل

في الإسلام سند الحقيقة الدينية ، ومحل الوحي – كما أسلفنا – وإذا أُسقط العقل ، سقط الوحي والتكليف ؛ وأن الوحي هو الإطار المرجعي الذي يمنح العقل القيم المعصومة ، ولا تعارض – كما يقول الإمام ابن تيمية وغيره – في الإسلام : بين صحيح المنقول ، وصريح المعقول ، ذلك أن مصدر العقل والوحي هو الله ، فلا يمكن أن يقع التناقض والتعارض ، وأن أي تعارض معناه ضعف في سند المنقول ، أو عجز وخطأ في كيفية الاستدلال. وعند احتمال التعارض ، فإن حكم الوحي المعصوم مقدم على حكم العقل المظنون. ومع ذلك يأبى دعاة التغريب والعلمنة في العالم الإسلامي ، إلا أن يجعلوا الوحي والغيب والدّين ، نقيض العقل ، والعلم اليقيني . ولعل من أخطر القضايا في تشكيل المسلم المعاصر أيضاً : الخلط بين معارف الوحي المعصومة ، ومدارك العقل المظنونة ، خاصة في إطار التعامل في التراث أو المواريث الثقافية بشكل عام ، التي تعتبر ذاكرة الأمة ، ومخزونها الثقافي ، والمصدر والأساس في عملية التشكيل ، وذلك بمحاولة نقل القدسية والعصمة ، من قيم الكتاب والسنة ، إلى الاجتهادات البشرية[١] .

وبإمكاننا بموازنة موجزة بين أهل الحديث والأشاعرة والماتريدية ، إدراك مدى الشرخ الذي أحدثه التفكير العقلي في مسائل العقيدة في جسم الأمة .

ففي كتابه " منهج الأشاعرة في العقيدة " يذكر د. سفر الحوالي فروقاً بين أهل الحديث أو ما يسميهم أهل السنة والجماعة وبين الأشاعرة ، والذين

---

(١) الشاكلة الثقافية ، ص٤٧ .

يعدهم أقرب الفرق الإسلامية إلى أهل السنة . ومـمّا يذكره د. الحوالي :

١- أن مصدر التلقي عند الأشاعرة هو العقل ، وعند أهل الحديث النقل .

٢- أن التوحيد عن الأشاعرة هو نفي التثنية والتعدد والتبعيـض والـتركيب والتجزئـة . وعنـد أهـل الحديـث معـروف بأقسـامه الثلاثـة : توحيـد الربوبية، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

٣- أن إثبـات وجـود الله أمـر فطـري والأدلـة عليـه في الكـون والنفـس والأفاق. وعند الأشاعرة دليل وحيد هو دليل الحدوث والقدم .

٤- أول واجب عند الأشاعرة النظر أو القصد إلى النظر . في حين أن أول واجب هو التوحيد بقطع النظر عن طريقة حصوله .

٥- الإيمان عند الأشاعرة هـو التصديـق القلـبي ، في حـين أن الإيمـان إقـرار بالقلب وتصديق باللسان وعمل بالجوارح .

٦- مذهب أهل الحديث أن القرآن كلام الله غير مخلـوق ومذهـب المعتزلـة أنه مخلوق . أما مذهب الأشاعرة فمن منطلق التوفيقية فرّقوا بين المعنـى واللفظ . فـالكلام الـذي يثبتونـه لله تعـالى هـو معنـى أزالي أبـدي قـائم بالنفس ليس بحرف ولا صوت ، ولا يوصف بالخبر ولا الإنشاء .

٧- وفيما يخص القدر فإن الأشاعرة أرادوا أن يوفقوا بين الجبريـة والقدريـة فجاءوا بنظرية الكسب وهي في مآلهـا جبريـة خالصـة ؛ لأنهـا تنفـي أي قدرة للعبد أو تأثير . أما حقيقتها النظرية الفلسفية فقد عجز الأشـاعرة أنفسهم عن فهمها فضلا عن إفهامها .

٨- ينظر الأشاعرة أن يكون شيء يؤثر في شيء وأنكروا كل "باء سببية" في القرآن ، وكفّروا وبدّعوا من خالفهم ، ومأخذهم فيها هو مأخذهم في القدر ، فمثلا عندهم : من قال إن النار تحرق بطبعها ، أو هي علة الإحراق فهو كافر مشرك لأنه لا فاعل عندهم إلا الله مطلقا .

٩- ينكر الأشاعرة أن يكون للعقل والفطرة أي دور في الحكم على الأشياء بالحسن والقبح ، ويقولون مرد ذلك إلى الشرع وحده ، وهذا رد فعل مغال لقول المعتزلة .

١٠- ينفي الأشاعرة قطعا أن يكون لشيء من أفعال الله تعالى علة مشتملة على حكمة تقضي إيجاد الفعل أو عدمه ، وهذا نص كلامهم تقريبا ، وهو رد فعل لقول المعتزلة بالوجوب على الله حتى أنكر الأشاعرة كل لام تعليل في القرآن ، وقالوا إن كونه يفعل شيئا لعلة ينافي كونه مختاراً مريداً .

١١- التكفير عند أهل الحديث حق لله تعالى لا يطلق إلا على من يستحقه شرعا، ولا تردد في إطلاقه على من ثبت كفره بشروطه الشرعية . أما الأشاعرة فهم مضطربون اضطرابا كبيرا . فتارة يقولون نحن لانكفر أحدا، وتارة يقولون نحن لانكفر إلا من كفرنا ، وتارة يكفرون بأمور لاتستوجب أكثر من التفسيق "[١] .

---

(١) منهج الأشاعرة في العقيدة ، ص ص ٣١-٥٨ .

ويختم د. سفر الحوالي هذه الموازنة بذكر نقطة الاتفاق الوحيدة بين أهل الحديث وبين الأشاعرة بقوله : " من خلال استعراضي لأكثر أمهات كتب الأشاعرة وجدت أن موضوع الصحابة هو الموضوع الوحيد الذي يتفقون فيه مع أهل السنة والجماعة ، وقريب منه موضوع الإمامة . ولا يعني هذا الاتفاق التام بل هم مخالفون في تفصيلات كثيرة لكنها ليست داخلة في بحثنا هنا لأن غرضنا –كما في سائر الفقرات– إنما هو المنهج والأصول[١] .

أما عن أوجه الأختلاف بين الأشاعرة والماتريدية ، فإن أحسن من يجليها على حقيقتها الحسن بن عبد المحسن المشهور بأبي عذبة ف يكتابه " الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريدية " والذي ضمن كتابه المسائل المختلف فيها بين الفريقين وذكر منها : الاستثناء في الإيمان ، وسعادة الشقي ، وشقاوة السعيد ، وحياة نبيّنا في قبره ، وكون الإرادة ملازمة للرضا ، وإيمان المقلد ، والكسب والإمكان العقلي لعذاب العبد المطيع ، ووجوب معرفة الله بالشرع أو العقل ، وجواز تكليف العبد بما لايطيقه ، وعصمة الأنبياء عن المعاصي ، وهل الاسم هو المسمّى .

إن اختلاف أمتنا كان ولا يزال أمراً مؤلماً ، لكنه على أي حال يظل أقل سوء من اختلاف أية أمة أخرى من أمم البشرية قاطبة . ذلك أن الاختلاف الفكري بين المسلمين لم يأخذ قط طابع العنف ، بل كان في جو مطلق من الحرية الفكرية والدينية . وهذا ما يحق لهذه الأمة أن تباهى به أمم الدنيا كلها . وإنك

---

(١) المرجع السابق .

لتعجب أنه في الحوادث القليلة جداً التي تدخل فيها سلطان الدولة السياسي لصالح هذه الفكرة أو تلك ووقع العنف ، كما حدث في محنة خلق القرآن . كانت النتيجة وبالاً على من بدأ العنف . وكما يرى د. إبراهيم مدكور فقد "كانت محنة خلق القرآن بحق نقطة تحول واضحة في تاريخ الحياة الفكرية والعقائدية في تاريخ المسلمين ، ذلك أنها أثارت في نفوس المسلمين ما أثارت من سخط وغضب ، وعززت النزعة السلفية لمواجهة تيار العقليين الغلاة " .

ولئن كان في تاريخ أمتنا نقاط سوداء قليلة لاقيمة لها مثل حادثة إلزام المسلمين بالقول بخلق القرآن . فإن في تاريخنا مئات بل آلاف المواقف التي تعبر عن مدى احترام المسلمين لحرية الفكر . نذكر منها امتناع الإمام مالك بن أنس عن إلزام المسلمين بالموطأ ، كما اقترح عليه أبو جعفر المنصور .

وفي حديثه عن الحرية الفكرية يقول الشيخ محمد أبو زهرة : " وما كان للاختلاف العملي مجال في الميدان النظري إلا أنه أحياناً كانت الدولة تُغرى بإنزال الأذى ببعض العلماء ، إما لأنها تعلم أنه ينهج في دراساته منهجا فيه تحريض عليها، فيكون الأذى للتحريض . لا لأصل التفكير ، أو لأنه يخشى على آرائه من إثاره الفتنة ، وأحيانا يكون في بعض الآراء خروج عن الإسلام ودعوة إلى الزندقة . وأن الخلاف فيما يتعلق بالعقائد والفقه ، لم يتجاوز الحد النظري والاتجاه الفكري ، فإن العلماء الذين تصدوا لهذا لم يجر بينهم خلاف أدى إلى امتشاق الحسام ، وطبيعة حياتهم العلمية لاتسمح لهم بأن ينقلوا الخلاف من ميدان القول إلى ميدان العمل ، ولم يكن الاختلاف النظري ليصل في حدته إلى

أن يجعلوه عمليا ، ولم تظهر الحدة إلا في أن يحكم واحد على الآخرين بالخطأ أو الابتداع "[١] .

إن كثيراً من الدارسين لتاريخ الفكر الإسلامي يرون أن أعظم خطأ ارتكبه المعتزلة ، وأهم سبب من أسباب سقوطهم كان في اضطهاد خصومهم ، وحملهم على الأخذ بأرائهم بالقوة . وفي هذا دليل على أنه لا يعيش في مناخ الفكر الإسلامي إلا من يريد لغيره أيضاً أن يعيش ، وأن أية محاولة لاستعمال القوة تقضي أول ما تقضي على صاحبها .

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص٣٢٠ .

المصادر والمراجع :

١- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، معارج الوصول إلى معرفة أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول ، دمشق ، دار البيان ، ١٩٨٠ .

٢- ابن تيمية ، موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٥ .

٣- ابن حسن ، عثمان بن علي ، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ١٩٩٢ .

٤- ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر ، أعلام الموقعين عن رب العالمين ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٧٣ .

٥- أبو زهرة ، محمد ، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٩ .

٦- أبو عذبة الحسن بن عبد المحسن ، الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريدية ، بيروت ، عالم الكتب ، ١٩٨٩ .

٧- الأشقر ، عمر سليمان ، العقيدة في الله ، الكويت ، مكتب الفلاح ١٩٨٤ .

٨- البغدادي ، عبد القاهر بن طاهر ، الفرق بين الفرق ، بيروت ، دار المعرفة، ١٩٨٠ .

٩- البهي ، محمد ، محاضرات في الفكر الإسلامي في مرحلته الثانية ، القاهرة ، دار الزيني ، ١٩٦٢ .

١٠- الجندي ، أنور ، الإسلام والفلسفات القديمة ، القاهرة ، دار الاعتصام، ١٩٧٧ .

١١- حسنة ، عمر عبيد ، الشاكلة الثقافية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٩٩٣ .

١٢- حلمي ، مصطفى ، منهج علماء الحديث والسنة من أصول الدين ، الإسكندرية ، دار الدعوة ، ١٩٨٢ .

١٣- حلمي ، قواعد المنهج السلفي ، القاهرة ، دار الأنصار ، ١٩٧٦ .

١٤- ابن أبي العزّ ، شرح العقيدة الطحاوية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٩٨٨ .

١٥- الحوالي ، د. سفر ، منهج الأشاعرة في العقيدة ، الكويت ، الدار السلفية ، ١٩٨٦.

١٦- الرازي ، أحمد بن محمد ، حجج القرآن لجميع أهل الملل والأديان .

١٧- السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، معترك الأقران في إعجاز القرآن، بيروت ، دار الفكر العربي ، ١٩٩٠ .

١٨- السيوطي ، صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٤٧ .

١٩- الشنقيطي ، محمد الأمين بن محمد المختار ، الإقليد للأسماء والصفات والاجتهاد والتقليد ، القاهرة ، مكتبة ابن تيمية ، ١٩٨٨ .

٢٠- الشنقيطي ، مذكرة في أصول الفقه ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٨٢ .

٢١- صبحي ، أحمد محمود ، في علم الكلام ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٥ .

٢٢- العك ، خالد عبد الرحمن ، الأصول الفكرية للمناهج السلفية عند ابن تيمية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٩٩٥ .

٢٣- العيثمين ، محمد الصالح ، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٢ .

٢٤- الغزالي ، محمد بن محمد ، إلجام العوام عن علم الكلام ، القاهرة ، مكتبة الجندي ، بدون تاريخ .

٢٥- الهراس ، محمد خليل ، دعوة التوحيد ، مكتبة ابن تيمية ، ١٩٨٧ .

٢٦- الهلالي ، نصح الأمة في فهم أحاديث افتراق هذه الأمة ، عمان ، دار الأضحى ، ١٩٨٨ .

ABSTRACT

This essay discusses the living controversy among the different schools of Islamic Faith, on various issues . The aim of the essayl' is to expose the effects of thinking of various schools , which have appeared to be mostly negative .